أسْمى مِنَ الحُبّ

أيمن توفيق

أسمى من الحب

أيمن توفيق
تدقيق لغوي عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: 2019/2928
ترقيم دولي 978-977-6594-75-3

دار فصلة للنشر والتوزيع
٧٧ ش - صلاح الدين عبد الكريم - متفرع
من عثمان محرم - هرم - جيزه
.٢٣٥٦٢٩٣٦٩
fasla,pub@gmail,com
FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

أسْمى مِنَ الحُبّ

أيمن توفيق

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

«697/ 2/ 2016»

ردمك

ISBN 978-9957-625-02-3

إهداء

كثيرون هم من أرغب في إهداء روايتي إليهم، من أحبطني وثبطني قبل من شجعني ودعمني، لكن لم أجد من يستحق الإهداء أكثر منك أنتِ؛ إليك «أمي» أهدي كتابي.

بمثابة تقديم

د/ أيمن العتوم *

عمان

16-12-2018

بوصلة الوفاء
هي ثلاثُ رواياتٍ في كتابٍ واحد.

حينَ يكون الوفاء بوصلةً حقيقيّةً لقلب العاشق، الوفاء للحبيبة الّتي اختارها القلب الّذي لا يضلّ في الرّواية الأولى (أسمى من الحبّ)، والوفاء للوطن في الرّواية الثّانية (فاصل ونواصل)، والوفاء للكرامة في الرّواية الثّالثة (نهاية وبداية). فلم يتخلّ عن حبيبته في الأولى، ولا عن وطنه في الثّانية ولا عن كرامته في الثّالثة، وبهذا يعيشُ الإنسانُ متصالِحًا مع نفسه، ومع أنّ البطل في الرّواية الأولى لم يستطع الموتُ أنْ يُفرّقه عن حبيبته، فإنّه تخلّى عنها بسهولة في الرّواية الثّالثة مع أنّ حبيبة البطل في هذه الرّواية طاردتْه حتّى آخر رمق، ويبدو أنّ الأمر متناقضٌ هنا، ولكنّه في الحقيقة عكسُ ذلك تمامًا، إنّه منسجمٌ أحسنَ ما يكون الانسجام، والسّبب ببساطة أنّ الحبيبة في الرّواية الأولى حفظت الكرامة لحبيبها، ولكنّها داسَتْها في الرّواية الثّالثة، لكي يقول النّصّ؛ إنّ الكرامة فوقَ كلّ شيءٍ، وإنّها إنْ صِينَتْ تدفّق بعدها الحُبّ نهرًا لا ينضب، وإذا ديستْ خُنِقَ معها الحُبّ في مهده قبل أنْ ينمو أو يُبرعم!

الصّديق أيمن توفيق، روائيٌّ شابٌّ، صاعدٌ في سُلّم الرّواية بتؤدة، وماضٍ في دربها الطّويل بعزمٍ، له الثّمرة إنْ أدام النّظر، وله الفوز إنْ أطال العِناد، والنّصر عِناد، والفوز عزيمةٌ، وتحقيقُ الغايات إرادةٌ لا تكلّ، ومِشوارٌ لا يشقّ على صاحبه مهما طال.

والرّوايات الثّلاث تمتلك لغةً رشيقةً، وأسلوبًا سَلِسًا، وتراكيب طافحة بالشّاعريّة، ومن طبيعة هذه اللّغة أنْ تكون شاعرة، لكي ترقّق القلب، وتمسح على جِراحه، وكذا كانتْ هذه الرّوايات، وضعتْ يدَها على جِراح القلب من أجل أنْ تجد وسيلتَها في الشّفاء بنفسها، فمهمّة الرّوائيّ ألاّ يضع الإجابات وألاّ يقدّمها على طبقٍ سهلٍ للقارئ، ويكفيه أنْ يُثير التّساؤلات ويُلقي حجرًا في البحيرة الرّاكدة.

في الرّواية الأولى (أسمى من الحبّ) تستوقفك اللّغة ذات الإحساس والحساسيّة، تنقر من ماء القلب، فيظهر أثر ذلك على العين، فتذرف الدّمع، تذرفه في أكثر من موقف، في موقف التّخلّي عن الحبيب من أجله، وفي موقف التّخلّي عن الكرامة من أجله، وفي موقف التّخلّي عن الرّوح من أجله أيضًا، إنّها روايَة التّضحيات، التّضحيات الّتي تستمرّ إلى ما بعد الموت كما في رسالة بطلتها (أمل) في موقف القبور مع (أسماء)، وتلك هي المعاني العميقة الدّقيقة المُعتّقة للحبّ، الّتي تقتربُ في سِحرها وغموضها من سماوات الخيال، وتسمو إلى مثاليّة لم تعدْ موجودةً في زماننَا، أو قُل إنّها صارتْ مُستغربةً في مجتمعاتنا؛ ولكنّه الحبّ، ومَنْ يستطيع أنْ يُفسّره أو يتوقّع ما يحدث عنه أو ينجم بسببه!

الرّوائي أيمن توفيق قادرٌ على أنْ يشقّ طريقه إلى الذُّرا، لكتاباته ذلك الغموض اللّذيذ، ولروحه النّقيّة وقلبه الدّافِئ ذلك الأثر الّذي يترك بصمته العميقة في كلماته. المجدُ للمُجِدّ، والدّرب للسّائر، والنّهاية لِمن يملكها!

*شاعر وروائي أردني.

هو

بَيْنَ اليأس والأمل عشتُ قصَّتي.

من أين أبدأ سـردَها؟ مِنْ بدايتها؟ أم من نهايتها؟ أيًّا ما كان لا يهمّ، لم أكن أتوقّع أن تتخلّى عني بهذه السّهولة، كيف أمكَنَها أنْ تفعلَ ذلك بي؟ أهكذا تنتهي قصَّتنا بتلك البساطة؟

- «طريقُكَ ما زالت طويلة، لم يعُد بإمكاني أن أتحمَّل الضغوط التي أتعرَّض لها مِن والدي أكثر مِن ذلك؛ ليذهب كل منّا في طريقِه».

تسمَّرتُ في مكاني، أشعر بالشَّلَل، وكأنّ جميع وظائف جَسَدي قد توقَّفَت عن العمل، أو هكذا تمنَّيت، لم أدرِ بماذا يمكنني أن أجيبها؟ كان قرارها مفاجئًا لي؛ فقط ومنذ أيام قلائل كانت ما تزال تمنحني وعدًا تلو الآخر؛ أن تنتظرني إلى آخر العمر، ولكنْ فجأةً انهار كل شـيء على يديها.

هل كنتُ مخدوعًا إلى هذه الدرجة التي لم أرَ معها وجهها الحقيقي؟ أين هو ذلك الكلام المعسول المُحلّى بأسمى عِبارات الحُبّ؟ «أنت قلبي النابض، حياتي هي أنت، لا معنى لوجودي من دونك...»، وغيرها الكثير، إلى أين ذهبَت تلك الوعود البرّاقة؟ في لحظةٍ تلاشى كلّ شـيء، رحَلَتْ حتى دون أنْ تمنحَني فرصةً أسألها فيها عن سبب ذلك التغيير المفاجئ في موقفها تجاهي؛ ولكن، بإمكاني أن أتوقَّع السبب، الأمر لا يحتاج إلى عبقريّةٍ منّي، لا بُدَّ وأنّ هناك آخَرًا.

ومن المؤكد أن ذلك الآخر يمتلك ما لا يمتلكه شاب مثلي، بالكاد لم يحقق شيء في حياته بعد، سوى الحصول على شهادته الجامعية، التى حصلت عليها حديثًا. أما هو فلا بد أنه يمتلك على الأقل شقة ووظيفة؛ وإلا لما كانت تخلت عني بهذه السهولة، والحجة جاهزة «والدي!»، ومن يدري ربما يكون ذلك العريس عائد من إحدى دول النفط الغنية؛ ويمتلك أيضًا سيارة ورصيد في البنك، وعندها ما حاجتها لواحد مثلي، والحب أمر ثانوي، يمكن تداركه فيما بعد، أو حتى يمكنها الاستغناء عنه نهائيًا.

تركَتْني ورحَلَت بعد أن حطَّمَت كلماتها كل ما شـيدْتُهُ مِن أحلام على يديها، كرهتُها وكرهتُ نفسـي أكثر؛ لأنني لم أستطِع نسـيانها، ولم أنجح في التَّخلُّص مِن نير حبِّها، وتركها ذلك الجُرح الغائر داخلي، ولا أدري متى وكيف يمكنه أنْ يشفى؟

كيف أمكنها أن تنسى ما كان يجمعنا بين عشـيةٍ وضحاها؟ تمنَّيْتُ لو أنني رجوتُها

أن تتراجَع عن موقفها، وأن تمنحَني فرصةً أخيرة، ولكنّ كرامتي أبَت عليَّ أن أفعل ذلك، ذهبَتْ بعيدًا وتركَتْني وسط دهشتي محاطًا بالحُطام.

القلب الذي لم يعرف سوى الحُبّ، وأسلمتُها مفاتيحهُ بيدي، تتخلى عنه ببساطة، وكأنه شيء مهمل منعدم القيمة، ألم تفكر في ولو للحظة واحدة، طالما أنها كانت تنوي التخلي عني بهذه السرعة، لماذا لم تفعل ذلك من البداية؟! ولماذا تركت حبها يتغلغل داخلي ويسيطر على جميع حواسي؟! وراحت تمنحني وعدًا تلو الآخر، سيطرَ عليّ غضبي وتملكتني فكرة الانتقام، بعد أنْ أسلمت نفسي إلى رغبتي في أن أُشعِرَها بالنَّدم، وأن أجعلَها تدفَع ثمن تلاعبها بمشاعري لكن تلك الرغبة لم تكن غير وسيلة لإيجاد هدف؛ يساعدني على مواصلة الحياة، طوق نجاة ينتشلني من أحزاني، التى دائمًا ما كانت تعاودني كلما اختليت بنفسي.

قرَّرْتُ أن أحوِّل يأسي إلى دافع، وحقدي إلى قوّة أعبِّد بها طريقي للغَد، وأقسمتُ لنفسي أنّه سيأتي عليَّ يومٌ ألتقيها وأتلذَّذ به حينما أرى النَّدَم يدمي مقلتيها.

فقدتُ إيماني بالحُبّ، وكفَرتُ به، ولم أعُد أسلِّم بوجوده، يا لهم مِن مخدوعين أولئك السكارى بخدره، المنتشين بوهمِه؛ يعيشون في عالم أحلامِه، غير مدركين ما ينتظرهم، لكنْهم سرعان ما سيستفيقون منه ليكتشفوا زيف وجوده.

عشتُ بعدَها وحيدًا؛ بعد أنْ أوصَدْتُ أبواب قلبي أمام أيّ فتاة أخرى يمكنها أن تتسلَّل إليه، وتعبَث به. كان معظم وقتي أقضيه متنقِّلًا بين المكتبات لجَمْع المادّة العلميّة لإتمام رسالة الماجستير الخاصّة بي، والتي أعددتُها في الأدب الإنجليزي، بينما تكفَّل عملي مترجِمًا في أحد مكاتب الترجمة باحتياجاتي المادية.

من كان يتوقع أن تنمو أحلامي فجأة، بعد أن كانت تنحصر فيها هي فقط، وفي عش الزوجية، الذي خططنا أن يجمعنا سويًا، ليصبح حلم بالحصول على الماجستير والدكتوراة، ومن يدري ماذا ينتظرني بعد ذلك؟!

عامان وعشرة أشهر لم أعرف خلالها طعمًا للراحة، أصِل فيها ساعات الليل بالنهار، كانت كفيلة بحصولي على درجة الماجستير بدرجة امتياز، مع مرتبة الشرف الأولى، وكان تفوُّقي كفيلًا بتعييني مُعيدًا في الكلية؛ في استحقاق وحيد نجحت ثورة يناير في تحقيقه، فكان من حسن حظي، وكأن القدر يربتُ بها على قلبي ويعوضني؛ بعد صدور القرار الجمهوري بتعيين حَمَلة الماجستير والدكتوراة.

ألغيتُ فكرة الارتباط أو على الأقلّ أجَّلتُها إلى أجَلٍ غير مسمّى، رغم إلحاح والدتي

المستمرّ؛ خاصّةً مع استقرار أحوالي الماديّة، حتى إنها باتت تردِّد الأمر على مسامعي ليل نهار؛ آملةً أن أستجيبَ لرغبتها، مطبقة المثل القائل: «كثرة الزن على الأذن أمضى من السحر».

لكنني كنت أتحجج بانشغالي في التحضير للحصول على درجة الماجستير، مُعطيًا إياها وعدًا بالتفكير في الأمر بشكل جدّي بعد الانتهاء منه؛ حتى إنها أصبَحَتْ أكثر حرصًا منّي وتحفيزًا لي على إتمام الرسالة، ورغم أنني استرحتُ مِن إلحاحها عليّ بالزواج، إلا أنني لم أتخلَّص نهائيًا مِن تذكيرها لي بوعدي بين الحين والآخر.

لكنني نكثتُ بوعدي لها بعد الحصول على الماجستير؛ وتحجَّجْتُ هذه المرة بالدكتوراة، التي بدأتُ أسلك أولى خطواتي للحصول عليها. لم أكن سعيدًا بإتعاس والدتي؛ بسبب عزوفي عن الزواج، كانت دموعها عزيزة عليّ. هي مثل كلّ الأمّهات تتمنّى أن ترى ابنها سعيدًا مع زوجته، تسعد بأبنائه. وأعلم أنه مِن واجبي أن ألبّي لها رغبتها، لكنّ ذلك الجرح بداخلي ما زال حي ينبض بالحياة، لَم يكن باستطاعتي أن أفتح صفحةً جديدةً في حياتي دون أن أغلق تلك القديمة تمامًا، وهو أمرٌ لم يكن بيدي وكنت أجهل متى وكيف يمكن حدوثه؟

ومن يضمن لي أن هذه العروس التي سأرتبط بها لن تترك آخر لأجلي؛ فأسبب لغيري من الألم، مثل ما سببه آخر لي. لكن لم يكن بإمكاني الصُّمود أمام رجاءات والدتي المستمرة؛ خاصّةً بعد انتكاستها الصحيّة الأخيرة، والتي لازمَت فيها فِراش المستشفى لأسبوعين كاملين؛ بسبب ارتفاع الضغط، ناهيكَ عن معاناتها مِن مرض السُكَّري، لم أستطِع الوقوف كثيرًا أمام رغبتها، وفي النهاية كان على الرضوخ؛ مع تحذير الأطباء مِن عدم إغضابها، حتى لا تسوء حالتها مِن جديد، وكان الجميع قد اتفقوا عليّ، وحملوني ذنب ما قد يحدث لها، والدي، عماتي، خالاتي، فاضطررتُ للموافقة، آملًا أنْ تمنَحَها موافقتي على الزواج سببًا لاستعادة صحَّتها. كما تركْتُ لها مهمّة اختيار العروس، وكأنّ الأمر لا يعنيني، وكأنّ مَن سيتزوَّج شخصٌ آخر غيري. وبالفعل بدأَتْ صحَّتها في التحسُّن بدرجه كبيرة، كانت موافقتي على الارتباط أقوى تأثيرًا مِن قُدرة وفاعلية أيّ دواء على الشفاء.

على الفور بدأَتْ عمليّة البحث، والتي جنَّدَت لها والدتي كلّ نساء وفتيات العائلة، لا أنكر أنني حاولتُ تأجيل الأمر قدر استطاعتي، وفي كلّ مرة كنتُ أجدُ سببًا للرفض؛ هذه طويلة، أمّا تلك قصيرة، هذه نحيفة، وتلك سمينة، إلى أن وجدَت لي

والدتي برعاية خالتي عروسًا لم أجِد فيها سببًا للرَّفض أعيبها به؛ فاضطررتُ للقبول ممتعضًا.

***

أسماء عبد الرحمن، تعمل طبيبة في مركز الأورام، تصغرني بثلاث سنوات، لم يكن بها ما يمكن أن أعيبها به كما فعلتُ مع غيرها، متوسِّطة الطول، ممشوقة القوام، حسَنَة المظهر، أمّا أخلاقها فلا يشوبها شائبة، ابنة وحيدة لأبٍ طبيبٍ وأمٍّ تعملُ مدرِّسة. أي أنّها مُكتملة مِن جميع النواحي؛ وبالتالى لم يكن أمامي سوى القبول بها، أما والدتي لم تكد تصدق نفسها من الفرحة، وراحت تردد على مسامعي: «الحب يأتي بعد الزواج»، فأجيبها: «وماذا إن لم يأت؟!» تغضب قبل أن تربت على كتفي وتقول: «الحياة لا تتوقف عند أحد، انس الماضي، وترقب المستقبل».

لكنّ مشاعري لم تستطِع التجاوُب معها، لم يكن العيب فيها؛ كان العيب في أنا، وهي نفسها أدْرَكَتْ ذلك منذ البداية وصارحَتني بالأمر، ولم أجِد ما أجيبها به؛ لم يكن لديَّ استعداد لإخبارها أو إخبار أحد آخر بحقيقة موقفي؛ كان يعني ذلك انهيار كل شيء، وهو ما يترتب عليه إغضاب والدتي؛ لذا قررت أن أتركها حتى تمل هي مني، وتقرر إنهاء الخطبة، قد أكون شخص أناني، لكن لم يكن أمامي خيار آخر. وتحجَّجْتُ لها أنني ما زلتُ لم أتعرَّف إليها جيِّدًا، وأنّ ما تطمع فيه مِن حُبّ وما أبخل به عليها مِن كلمات لا بُدّ وأنه سيأتي مع الوقت.

لكن موقفي أخذ في التغير، لن أقول إنني أحببتُها لكنّني بدأتُ أعتادُ على الأمر تدريجيًّا، ورحت أتساءل بيني وبين نفسي: «ولمَ لا؟ ربما يمكنها أن تُعيدَ لي مِن جديد إيماني بالحبّ من جديد، وعامٌ كفترة خطوبة لا بُدّ وأن يكون قادرًا على تقريب المسافات فيما بيننا، ومهما طال العمر أو قصر سيكون على الارتباط، أنا لن أعيش كراهب في معبد الحياة، وإن كان ذلك سيحدث إن عاجلًا أم آجلًا، فليحدث الآن، ومن يدري إن كنت سأتمكن مستقبلًا من إيجاد فتاة أخرى مثل أسماء؟! وإن كان قلبي قد خدعني في الماضي، سأحتكم إلى عقلي الآن».

***

لكنّ القدر أبى إلا أنْ يُلقي بها في طريقي مجدَّدًا؛ وكأنه يستكثر على سكينتي... نعم إنها هي، أمل، حُبّي الأوّل. ذهبتُ ذلك اليوم للقاء أسماء لاصطحابها للغداء بعد انتهاء نوْبة عملها الصباحيّة، لكنها تأخَّرَت عليّ؛ فقرَّرتُ الصعود إليها واستعجالها؛ بعد أنْ مللتُ الانتظار، وما أنْ خرجتُ مِن المصعد حتى فوجئتُ بها تتَّجِه نحوَه.

بدا لونها شاحبًا؛ لم تعد نضرة كما كانت؛ لا بدّ وأنها أعباء الحياة، مَن يدري، ربّما تكون الآن أمًّا لطفل أو اثنين؟ كانت رؤيتها أمرًا مفاجئًا لي لم أتوقّع حدوثه، وهنا بالذات في الوقت الذي قررت أن أستسلم فيه لقدري.

تسمَّرَ كلّ منّا في مكانه لثوان معدودة وسيطَرَ علينا ملامح الدَّهشة، لكن دهشتي مُزجَت بما جرَّعَتني إيّاه من ألَمٍ طوال سنواتي الماضية، قرَّرْتُ التقدُّم إليها، إنها اللَحظه التي انتظرتُها طويلًا ، سألعنها، وألعن اليوم الذي تعرفت عليها فيه ، لكن ذلك الغضب الذي شعرت به لم يكن يعني سوى أمر واحد، رفضت الاعتراف به، وسألت نفسي، هل ما زلت أحبها رغم كل ما حدث؟! لكنّ أسماء لم تمنحني الفرصة اللازمة، رأيتُها تتّجه نحوي من بعيد؛ فأكملتُ طريقي، في حين اكتَفَت هي لدى مروري بها بإيماءة من رأسها، وابتسامة غلبها الحزن لم أجد لها تفسيرًا؛ قلت لنفسي: «لا بد وأنها تشعر بالندم»، وحتى إن لم تكن كذلك، إلا أن الفكرة راقتني كثيرًا؛ وقررت تفسيرها كذلك. وبدأ ذلك الجزء داخلي في لومي قائلًا: «منذ متى كنت شخصًا انتقاميًا؟!» لكنني لا أمنحه فرصة للنقاش، وأجيب عليه: «هي من جعلتني كذلك».

أسرعت خطواتي نحو أسماء، وأنا أكاد أطير من على الأرض، سلَّمتُ عليها وجعلتُها تتأبّط ذراعي، وفي الوقت ذاته أطبقتُ براحتي على يدها، لم تُدرك سبب ذلك التغيُّر المفاجئ، وتلك الفرحة العارمة التي سيطَرَت عليّ، ورغم هذا فقد مَنَحَها ذلك قدَرًا كبيرًا من السعادة، بَدَت واضحة على ملامحها في تلك الابتسامة التي عَلَت شفتيها، ناهيكَ عن تورُّد خدَّيها خَجَلًا.

كانت أمل تسترق النظر إلينا من بعيد وهي تنتظر المصعد، في حين تعمدت النظر في عينيها مباشرة؛ كان عليها أن تعلم أن حياتي لم ولن تتوقف عندها، لم تتحمل رؤية هذا المشهد؛ حتى إنها قرَّرَت هبوط درجات السلَّم، وهو ما منحني نشوةً بالغة؛ إنها اللحظة التي انتظرتُها طويلًا، لا بدّ وأنها تشعر الآن بالحسرة والألم، يمكنني الآن أن أطوي هذه الصفحة القديمة بعد أن حصلتُ على انتقامي الذي طالما رغبتُ فيه. واعتبار هذه اللحظة هي النقطة الفاصلة، بين ماضٍ قررت قبره، وحاضر شرعت ذراعي لاستقباله.

لكنّ ما أثار حيرتي أنّ أسماء أشارَت لها بيدِها، وكأنّها تذكّرها بلقاء ما يجمعهما لاحقًا، من أين تعرف كلتاهما الأخرى؟ أتكون قد جاءت لتخبرها بما كان يجمعنا؟ هل يمكن أن تكون هناك محاولة منها لهدْم حياتي الجديدة قبل أن تبدأ؟ لكنّ هذه التساؤلات لم تستطع أن تسلبني نشوة انتصاري.

أقبلتُ على طعام الغداء بنهمٍ شديد، لم أتلذّذ بهكذا طعام منذ مدة طويلة، تجاذبنا طرف الحديث، مازحتُها، وتحدَّثنا في أمور ومواضيع شتى، كان حديثنا مختلفًا هذه المرة؛ لم يقتصر كعادته على العروج على بعض الأحداث والمواقف التي لاقاها كلّ منّا في يومِه، فقد اعتدتُ أنْ أقصّ عليها بعض أحداث يومي كلما التقينا، في مُحاولة منّي لفتْحِ أبواب للحديث، وقد أفلح الأمر ووجدنا دائمًا ما نتحدّث بخصوصِه، بدلًا من حالة الصمت التي كانت تسيطر علينا؛ وتشكو منها. قالت لي فجأة:

-«هل تذكر تلك الفتاة التي كانت تنتظر المصعد وأشرتُ لها قبل أن تستخدم الدَرَج؟»

ارتبكتُ، ورغم عنّي سَقَطت سكّين الطعام من يدي على الأرض؛ أبعدتُ الكرسي للخلف لإحضارِها، لكنّ النادل كان أسرع منّي في التقاطِها، وإحضار أخرى نظيفة، ابتَسَمَت متسائلة:

- «إلى أين شرد ذهنك؟ أراكَ قد ذهبتَ بعيدًا، يبدو وأنكَ لم تنتبه لكلامي».

حاولتُ تدارُك الأمر وأجبتُها:

«أنا ما أزال هنا معك، ولم أذهب لأيّ مكان، كنت تتحدّثين عن تلك الفتاة»، وتسألتُ وأنا أكمل تناوُل الطعام وكأنّني لا أكترث للأمر: «ما بها؟»

- «مسكينة؛ تُعاني ورمًا سرطانيًا، ورغم نجاح عملية الاستئصال التي أجرَتها قبل ثلاث سنوات، والعلاج الكيماوي بعد ذلك، إلا أنّ الخلايا السرطانية عاودت الظهور مِن جديد، ولا أظنّها ستنجو منه هذه المرّة؛ كم أشعر بالأسى لأجلها!»

نزل عليّ الخبر كالصاعقة، في لحظةٍ انتهَت نشوة انتصاري الزائفة، وبدأت أجلد ذاتي، واستعدتُ ما كنتُ أكنّه لها مِن مشاعر جيّاشة، لم أفقدها يومًا، لكنْ زالَ ما تكدّس عليها مِن ضغينةٍ منّي.

حاولتُ إخفاء توتُّري واستجماع شتات نفسي المتناثر، ولكن عبثًا كانت محاولاتي، حاولت ازدراد ريقي، لكنني لم أستطع؛ تناولتُ كوب الماء من أمامي، لعلي أروي عطشي؛ كان حلقي محتطب من شدة الجفاف، لكنّ يدي خَذَلتني، وعجزتُ عن حَمْلها، فسقطَتْ رغمًا عنّي، متحوِّلةً لمجموعة مِن الشظايا الصغيرة التي افترَشَت أرض المكان، واحدة منها جَرَحَت يدي. لم أشعر بالدماء المتدفِّقة مِن يدي، إلا حينما التقطَتْها أسماء لتضمِّد جرحي، لم أنتبه لشيء بعدها، بالكاد كنتُ أجيبُها.

تعجَّبَت من حالي؛ منذ دقائق قليلة كنت في قمة سعادتي، وتساءَلَت عمّا حدث لي، تحجَّجْتُ بإرهاقي الشديد لعدم نيْلي قَدَرًا كافيًا من النوم؛ إثر سهري اليومي لساعة متأخرة للعمل على رسالة الدكتوراة الخاصّة بي، وسارعتُ بإنهاء لقائنا، أوصلتُها بسيارتي ماركة «لادا» موديل التسعينات، والتي حرصتُ على شرائها حديثًا بعد تعييني في الجامعة مباشرة، بعد أن دفعتُ جزءًا من الثمن مقدَّمًا، بينما عمدتُ لسداد باقي الدَّيْن على أقساط شهريّة لم أسدِّد منها سوى أشهر قليلة، كنت أنهب أرض الشارع نهبًا؛ وهو ما دفعها لحثي أكثر من مرة على تخفيف السرعة، لكنني كنت في عالم آخر.

لم يكن لي وجهة أقصدها بعد ذلك، كما لم تكن لديّ رغبة في العودة للمنزل، وتملكتني فكرة واحدة، لا بدّ لي من رؤيتها، ودون أن أدري قدتُ سيارتي، ولم أجد نفسي إلا قبالة منزل أسرتها، جلستُ في السيارة دون أن أبرحها، مرّت بضع ساعات وأنا على حالتي تلك... أنتظر، لا أفكر إلا في شيء واحد وهو رؤيتها، والتحدُّث إليها، دون أن أكترث للعواقب التي يمكن أن تترتَّب على ذلك.

لم تكن هذه المرّة بدافع الانتقام كما خطّطتُ لسنوات، وقد حقّقتُ مُرادي في ذلك اللقاء العابر في المستشفى، وكم تؤنّبني نفسي؟ فكّرتُ في الصعود، ولكن بأيّ صفة؟ وأيّ حجّة يمكن أن أقدّمها؟ وحتى إن استطعتُ تخطّي هذه العقبة، كيف سيكون موقفي إذا صادف وقابلتُ زوجها حينما أصعد لأعلى؟ تخلَّيْتُ عن الفكرة لكنني لم أتخلَّ عن فكرة لقائها.

تذكَّرتُ أنني لم أمحُ رقم هاتفها الخلوي، لا بدّ وأنني أحتفظ به في قائمة الأسماء، بحثتُ عنه وحاولتُ الاتصال به، لكنّه لم يعُد مستخدَمًا، قرَّرتُ الاتصال بزملاء دراستنا، ورحت أبحث عن أرقامهم واحدًا تلو الآخر؛ وأضغط على مفتاح الاتصال، بعضها لم تعُد مستخدَمة، في حين أجاب بعضهم الآخر، لكنْ لا أحد منهم يعرف عنها شيئًا؛ بعد أن انقطَعَت صلاتهم بها بعد الجامعة، وجميعهم ردَّد عبارة واحدة: «أنتَ هو مَن يجب أن نسأله عنها».

لم تكن قصّة حبّنا لتخفى على أيّ منهم؛ بعد أن ارتسمت ملامحها واضحة على وجْهَينا، وفي تصرفاتنا، لكنْ لا أحد منهم يعرف كيف انتهت الحكاية؟ ولم أمنح أي منهم فرصة للسؤال، أنهى المكالمة بعبارة واحدة: «سأعاود الاتصال مرة أخرى».

لم يبقَ أمامي إلا «سماح»؛ صديقتها المقرّبة، وكانت تربطهما صداقة تمتدُّ جذورها إلى سنوات الطفولة الأولى، بحكم الجيرة؛ حيث نشأتا معًا في بناية واحدة، ناهيك

عن عمرهما المتماثل وهو ما ضمن لهما زمالة في مراحل الدراسة المختلفة، بدءًا من الابتدائية وحتى الثانوية، لم تفترقا إلا مع التحاقهما بالجامعة، في الوقت الذي التحقت فيه أمل بكلية الآداب حيث التقينا، التحقت سماح بكلية الصيدلة. لكنّ الوقت متأخِّر؛ وهو ما يعني أنه عليّ الانتظار حتى الصباح، كنتُ أعرف أين تعمل؟ أتذكّر أنها عُيِّنت في إحدى المستشفيات الحكومية، لدى تخرُّجها من الجامعة.

لكنّ أكثر مخاوفي أن تكون قد انتقلت إلى مستشفى أخرى، وحتى إن انتقلَتْ لن يكون الأمر عائقًا، سأتمكَّن من العثور عليها، لكنّ ما أتذكّره أنها كانت تفكّر في ترك العمل بسبب تدنّي راتبها، مائتان وأربعون جنيهًا والاسم طبيبة صيدلية، سبعة عشر عامًا من الدراسة، منها خمس سنوات في الجامعة، وفي النهاية مرتّب لا يكفي حتى أجرة المواصلات، أيمكن أن تكون قد اعتبرت الوظيفة مجرّد سلَّم أو عتبة؟ لاكتساب الخبرة اللازمة والحصول على فرصة عمل في الخارج، أو ربما تكون قد استقالت والتحَقَت بالقطاع الخاص.

تلاعَبَت هذه الأفكار برأسي، ولكن لم يسعني عمل شيء لرفضها، أو حتى القبول بها، كان عليّ الانتظار، وما أصعبه، ولم أجِد بُدًّا من العودة إلى المنزل، وإلا فأين يمكنني الذهاب؟ كما أنّ والدتي لا بدّ ستكون قلقة عليّ.

***

كانت والدتي ما زالت مستيقظة حينما عدتُ إلى المنزل، رغم مرور أكثر من ساعة ونصف بعد انتصاف الليل. وهي التي اعتادت ألا تخلد للنوم إلا بعد عودتي، والاطمئنان عليّ، كما إنني لم أتأخّر يومًا إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل، وإن حدث كنتُ أحرص على إعلامها مسبقًا، لكنني لم أتعمّد إقلاقها عليّ، وتركها تقضي ليلتها على الشرفة تنتظر قدومي.

أخبرتني أنّ أسماء حاولت الاتصال بي والاطمئنان عليّ، لكنها لم تستطع، وهو ما فشلت فيه والدتي أيضًا؛ وتسبَّب في ازدياد قلقها. اعتذرتُ منها وادّعيتُ أنّ هاتفي قد نفد شحنه، لكنني في الحقيقة كنتُ قد أغلقتُه؛ حتى لا يتصل بي أحد، كان لديّ رغبة قوية في الاختلاء بنفسي والانفراد بها.

كما اعتذرتُ لها عن تناول العشاء، الذي أعدّته مسبقًا على مائدة الطعام، وقامَت بإعادة تسخينه أكثر من مرّة؛ بحجّة أنني سبق وتناولتُ العشاء بالخارج، رغم أنّ شيئًا لم ينزل إلى معدتي منذ تناولي طعام الغداء الذي لم أستطع الاستمتاع به، أو

حتى إكماله.

لم أتمكّن من الخلود للنوم رغم إرهاقي الشديد، ورغم إغلاقي لأنوار الغرفة، دقائق متقطعة هي كلّ ما استطعتُ استراقه مِن النوم، حتى صدح صوت المؤذّن بالآذان في المسجد المجاور، مُعلنًا حلول موعد صلاة الفجر. والتي شرعت في أدائها على الفور عقب انتهائه.

فتّشتُ بعدها في صندوق أغراضي القديمة، رسائل، هدايا تذكارية، حصلتُ عليها منها، ولم أجرؤ على الاقتراب منها طوال السنوات الماضية، لم أكن أبحث عن شيء محدَّد، إلى أن وَقَعَت عيني على ذلك الخاتم، الذي اشتريتُه في ذلك اليوم، حينما قرَّرتُ أن أهديها إياه ليكون خاتم خطبتنا، قبل أن تصدمني بكلامها، وتقضي على المفاجأة التي كنتُ ادَّخرتها لها.

احتفظتُ بهديّتي لنفسي، الخاتم، وخبأتُه ولم أجرؤ على الاقتراب منه حتى إنني تناسيتُ وجوده، سألت نفسي في أحيان كثيرة، لماذا لم تستوقفها في ذلك اليوم؛ وتتقدم لخطبتها، كما كنت قد قررت؟! لماذا تركتها ترحل، إذا كنت تحبها إلى هذا الحد؟! ولماذا انتصرت لكرامتك ولم تنتصر لحبك؟! قبل أن أعاتب نفسي: «لا كرامة في الحب»، لكنني أنكر ذلك القول على نفسي وأجيب: «لا حب بلا كرامة».

مع دقّات الثامنة كنتُ أمام بوابات المستشفى، حيث تعمل سماح، لكنني لم أتمكّن مِن الدخول إلا مع موعد استقبال المرضى في العيادات الخارجيّة، سارعتُ في الحصول على تذكرة للكشف؛ ساعدتني على اجتياز البوّابة الخارجيّة، وما إن تمكَّنتُ من الدخول حتى بدأت رحلتي في البحث عن مكان تواجد الصيدلية.

بدت متفاجئة لدى رؤيتي، وسألتني بعد أن سلَّمَت عليّ إن كنتُ مريضًا؟ أم إنني جئتُ بصحبة أحد المرضى؟ استأذنتها أن نتحدّث معًا على انفراد. فقامت بدعوتي على شرب فنجان من القهوة، بعد أن استأذنت زميلتها في التغطية على انصرافها لمدة ساعة.

دخلتُ في صلب الموضوع مباشرة دون مناورة مني، سألتها عن أمل، وطلبتُ منها أن تخبرني عن مرضها؟ أذهلتني المفاجأة، لم أتوقّع ما سردَتهُ على مسامعي، لم يكن هناك مِن آخَر في حياتها -كما سوَّلَت لي نفسي- لم تتخلَّ عنّي لأجل غيري، وهو ما يعني أنها تخلّت عنّي لأجلي أنا، حتى أنها لم تخطب ولم تتزوّج إلى الآن.

كم كنتُ غبيًا إلى الحدّ الذي لم أفكر فيه في هذا الاحتمال؟ ولكن من أين لي أن أعلم؟ وعلى الفور كنت على استعداد لتبني أكثر الافتراضات قتامة، وهي التي تخلّت عني حينما علمَتْ بإصابتها بالسرطان، خشيت عليّ من المعاناة؛ وقرَّرَت أن تعاني منفردة، دون أن تدري أنّ ما عانيتُه في البُعد عنها كان أكثر وطأة، وأشدّ قسوة ممّا كان يمكن أن نعانيه معًا في مرضها.

عاتبتُها بشدّة وعلا صوتي عليها رغمًا عنّي، حاولتُ تمالك نفسي، واعتذرتُ منها، «لماذا لم تحاولي إخباري بحُكم صداقتكِ لأمل على الأقلّ؟ لماذا لم تخبريني في المرّة التي التقيتُكِ فيها صدفة منذ عامين؟» قلت، غاصت في خجلها، لا تجد ما تبرِّر به موقفها، «حاولت مئات المرّات وقرّرَت أن أخبرك أكثر من مرّة، حتى إنني ناقَشْت الأمر مع أمل، وأنا أتوقّع أن أفلح في إقناعها بتغيير رأيها، لكنّ أمل أقسَمَت عليّ بكلّ ما هو غالٍ وثمين ألا أفعل، حتى إنها جعلت صداقتنا على المحكّ إن أنا أخبرتك»، أجابتْ.

في الوقت الذي آثَرَت فيه أن تضحّي لأجلي، وآثَرَت أن تجنِّبني أنْ أشهد احتضارها البطيء، والسرطان ينهش جسدها أمام عيني، كنتُ ألعنها وأخطِّط للانتقام منها؛ كم أشعر بالاشمئزاز مِن نفسي كلما تذكَّرْتُ ذلك؟ لكنْ، ليتها فكَّرَت ولو لمرّة واحدة أنني متُّ آلاف المرّات كلّ يوم كانت فيه بعيدة عني. ومع أنني مارست حياتي اليومية بشكل معتاد، آكل وأشرب، أتنفس وأنام، إلا أنني كنت أشعر بالخواء، كنت مفرغ من الداخل، جسد بلا روح؛ كانت هي الروح التي لم تنتزع مني بالموت، لكن بالفراق.

اتفقتُ مع سماح أن تأتي بصحبتي إلى بيت أمل، لكنْ كان عليّ أولًا أن أنهي أمرًا قبل ذهابي؛ لذا اتفقتُ معها أن أمرّ لاصطحابها عقب انتهاء وقت دوامها الرسميّ.

اتصلتُ بأسماء وطلبتُ منها لقائي على الفور، حاوَلَتْ الاستفسار عن السبب لكنني تهربتُ من الإجابة، واعدًا إياها بشرح تفصيلي ما أن نلتقي، استأذَنَت بدورها والتقتني في المطعم نفسه الذي تناولنا فيه غداء الأمس، ومع رشفات فنجانين من القهوة بدأتُ أسرد على مسامعها تفاصيل قصَّتي مع أمل مِن البداية، مرورًا بلحظة الانفصال، وما عانيتُه لسنوات على وقع فراقها إلى أن التقيتها بالأمس صدفة، وما عرفتُه اليوم من حقيقة كنت غافل عنها.

فهمَت بمفردها ما أودُّ قوله، رغم أنني لم أصرح به، وهو أننا لن نستطيع أن نكمل معًا؛ كانت أمل بحاجة إليّ، كما إنني كنتُ بحاجة إليها أكثر مِن حاجتها إليّ بكثير.

نزعَت بهدوء خاتم الخطبة من بنصرها، ومنحتني إياه، حاولتُ شكرها والاعتذار منها، لكنّها لم تمنحني فرصة لذلك، ورَحَلَت بعد أنْ تمنّت لنا حياة سعيدة.

لا أكاد أصدِّق نفسي، لحظات قليلة وأستعيد حبيبتي وحياتي مِن جديد، لن أتأخَّر في الارتباط بها، ليكُن زواجنا الأسبوع القادم أو حتى اليوم، لو أنني أمتلك القدرة لإعادة عقارب الزمن الى الوراء، لاستعدتُ تلك السنوات الماضية التي قضيتها بعيدًا عنها.

***

ركنتُ السيارة أمام باب البناية التي تسكن فيها، وصعدتُ بعدها برفقة سماح؛ التي كنتُ في أمس الحاجة إليها؛ لتمهيد الطريق أمامي، وتقديمي لأسرة أمل، لم يكن مِن المنطقيّ أن أذهب إليهم بمفردي، وأقتحم عليهم حياتهم الخاصة دون سابق إنذار، وحتى أجنب نفسي هذين السؤالين، من أنت؟! وماذا تريد؟! لذا اصطحبتها معي.

لكنّ ما اتضح لي بعد ذلك أنّ الجميع كان يعرفني منذ أمد بعيد، رغم أننا لم نلتقِ مُسبقًا، كما كانوا يعرفون قصتنا بأدق تفاصيلها، وكان أول من التقانا «بسمة» شقيقتها الصغرى، أفسحت لنا الطريق، وأدخلتنا إلى غرفة استقبال الضيوف، رأيتُ علامات المفاجأة والاندهاش ترتسم على ملامحها؛ ما أن رأتني واقفًا أمامها على الباب، خاصّة أنني طلبت من سماح وأكّدت عليها ألا تخبرهم مُسبقًا بقدومي؛ حتى لا تترك الفرصة لأمل في التهرُّب مِن لقائي.

كم هو كبيرٌ الشَّبَه الذي يجمع بسمة بأمل، نفس الوجه الأبيض المستدير كقرص الشمس، المائل قليلًا إلى السمرة، وذات العين اللوزية الجميلة، عرفتني ما أن رأتني، رغم أننا لم نلتقِ سوى مرّة واحدة، حينما اصطحبَتها أمل برفقتنا إلى الرحلة التي أعدّتها الجامعة يوم كنّا في سنتنا الجامعيّة الأولى، كانت ما تزال طفلة وقتها، سبعة أعوام وأكثر قد مرّت على ذلك اللقاء الوحيد، لا بدّ وأنها الآن في الجامعة، أو على الأقلّ على أبواب الالتحاق بها، مرّ عليّ أكثر من نصف ساعة وأنا أنتظر وحيد في غرفة الضيوف، لم يدخل عليّ أحد -اللهم باستثناء المرة الوحيدة التي أحضرت فيها «بسمة» القهوة عقب قدومنا بقليل- حتى سماح هي الأخرى خرجَت ولم ترجع.

كان يمكنني أن أشعر بحركة غريبة تدور في أرجاء المنزل، لم أتمكّن من إدراك حقيقة ما يجري وراء الكواليس في الخارج، بشكل دقيق، لكن يمكنني توقعه، أتراها تستعدّ

للقائي؟ أم إنها ترفض مقابلتي؟ شعرتُ بالقلق وازداد خوفي؛ لا بد وأنها تشعر بالحنق عليّ والغضب مني، أنا من تصرف بتلك الطريقة المستفزة في المستشفى، لكن ما يطمئنني، أن حالة الغضب التي بدت واضحة عليها آنذاك، يؤكد أنها ما تزال تحبني، لا بد وأنها ستسامحني، وتتجاوز الموقف، وحتى إن رفضت، لن أعدم الوسيلة لاسترضائها.

لم يعد بإمكاني احتمال فكرة الفراق، وتكرار مسلسل الابتعاد مجدَّدًا، كما حدث في السابق، خاصّة بعد علمي بحقيقة مرضها، ليس بدافع الشفقة، لكنه الحبّ، فقط الحب. لم أنتظر طويلًا بعد ذلك، لم تلبث أنْ تبددت مخاوفي بعد أن حضرت سماح وأخبرتني إنها ستأتي للقائي خلال دقائق، وراحت تشرح لي ما حدث في الداخل على عجلة، وأخذت توجه لي بعض النصائح، ورغم أنها كانت ترفض الفكرة في البداية، إلا أنهم أقنعوها بلقائي، وأن تستمع لما أودُّ قوله، على أن تقبله أو ترفضه كيفما شاءت، قبل أن تختم: «إنها تحبك كثيرًا؛ فلا تستسلم».

وأخيرًا أقبلت علينا؛ وراح قلبي يتقافز فرحًا، طربًا بنشوى لقاء كانت آمالي منعدمة في إمكانية حدوثه، ولسنوات كان قلبي صحراء مقفرة، أرض ظمآى للحب، ترتفع فيها أكف الضراعة؛ تتحين نزول غيث الرحمة في أي وقت

مدت يدها وسلمت عليّ، أطلقت براحتي عليها، حاولت جذبها، لكنني شددت من إحكامي عليها قبل أن أترك يدها تنسحب بهدوء.

سارعت «سماح» في الانسحاب للخارج -كما سبق واتفقنا- أمسكت أمل بيدها؛ لاستبقائها، «إلى أين؟» قالت، «سأعود»، أجابت عليها. قبل أن تومئ لي بطرف عينها قبل أن تخرج، وكأنها تقول لي: «ها هو القدر يمنحك فرصة ثانية؛ أحسن استخدامها؛ لأنك لن تحصل على سواها».

جلست في محاذاتي على نفس الأريكة، لكن بعيدًا عني، وكأنها تخشى مواجهتي والنظر في عينيّ، لكنني قرّرتُ تغيير موضع جلوسي، لأكون قبالتها، حتى أستطيع النظر في عينها مباشرة، وباغتها بالسؤال:

- «لماذا لم تخبريني بحقيقة مرضك؟ لماذا لم تمنحيني فرصة الاختيار؟ هل أردتِ حقًا أن تجنِّبيني حيرته؟ أم خشيتِ أنْ أبقى معكِ بدافع الشفقة؟ أو ربما قرَّرتِ مِن تلقاء نفسك أنني سأتخلّى عنكِ، فقرَّرتِ أن تُنهي قصّتنا وتكتبي كلمة النهايةَ بيديك، وربما قررت أن تحافظي على تلك الصورة الجميلة التي رسمتها لي في

مخيلتك؛ مخافة أن يهشمها قرار قد أتخذه بالانسحاب. كيف أمكنكِ أن تفكّري هكذا؟ ألم تدركي بعد كم أحببتكِ؟ وما زلتُ كذلك!»

حافَظَت على صمتها، لم تنبس بكلمة، لكن كان يمكنني أن أرى دمعةً تشقّ لنفسها طريقًا بصعوبة عبْرَ مآقيها، وإن كانت تحاول جاهدةً ألا تفسح لها مجالًا للسُّقوط، وكأنها تخشى بسقوطها أنْ تنهار.

- «لا يمكنك تخيُّل ما لاقيتُه مِن ألمٍ ومعاناة في ابتعادِك عنّي، حياتي توقَّفَت يوم أنْ رحلْتِ، كَلّ مَن يراني يعتقدني في أحسن حال، لكنني في الواقع كنتُ منهارًا من الداخل، كنت عبارة عن أطلال خربة، سكن الحزن أركانها، أنا لم أستعِد نفسي وحياتي إلا الآن، رجاءً حافظي عليها ولا تحطّميها مرة أخرى».

وبحركة تشبه ما يحدث في الأفلام تركت مجلسي قبالتها وجلست إلى جوارها؛ ابتعدت إلى طرف الأريكة، وتحركت من جديد إلى جوارها. شرعت في الوقوف، لكن راحتاي كانتا أسرع، وحطتا فوق كتفيها لتمنعاها، وللمرة الأولى التقت أعيننا، عاتبتها وعاتبتني، أخبرتني عيناها كم تحبني! وجاوبتها عيني أنا مثلك وأكثر.

وضعتُ يدي في جيبي وأخرجتُ الخاتم، نظرَتْ إليه باندهاش، كانت عيناها تسألان، أهو حقًا؟! لكنها تعود وتستنكر، وتطرد الفكرة من رأسها بعيدًا، لكنني قررت وضع حد لحيرتها.

- «نعم هو الخاتم نفسه»، قلت.

كنّا نقضي معظم الوقت في الاستراحات التي تفصل بين المحاضرات، وأحيانًا قبل أن تبدأ، وأحيان أخرى بعدها نتجوَّل في شوارع المدينة، نبني أحلامًا نأمل أن يسعفنا الغد لتحقيقها، مِن هذا المحل قرَّرنا شراء غرفة النوم، ومِن ذاك سنشتري غرفة الجلوس، أمّا المطبخ فمِن هناك. وحتى أننا اخترنا عدد الأبناء وأسمائهم، ولد وبنتان، خالد، وسارة، وهاجر، لكنني كنت أعترض مازحًا: «لن ننجب أقل من دستة من الأطفال، ستة ذكور، وستة من البنات»، فترد بعد أن تزم شفتيها: «إذن سنبحث لك عن أرنبة لتتزوجها»، وعندها تعلو ضحكاتنا.

وهكذا خطَّطنا لكلّ شيء في حياتنا، دون أن ندري ما يخبِّئه لنا القَدَر، كنّا نتجوّل في إحدى المرّات في سوق الذهب، ننتقل مِن محلٍّ لآخر، بالتأكيد لم تكن نيَّتنا الشراء، كانت أمل تُرهق البائعين، «أعطني هذا الخاتم، وتلك الأسورة» تقول، ليعطيها إياها البائع؛ طامعًا في صفقة بيع رابحة، لكنها لا تلبث أن تقول: «ليست

جيدة بما يكفي، ربما نمر لمرة قادمة؛ لرؤية شيء آخر»، وهو ما يؤدي لتبرم البائع؛ الذي يدرك من هيئتنا كطلبة، والتي يفضحها ما نحمله من كتب، أننا لا نمتلك ثمن الفرجة، فما بالك بالشراء. تجرِّب الحليّ، وفي النهاية نخرج دون أن نشتري شيئًا.

إلى أنْ جرَّبَت خاتمًا ذلك اليوم ورأيتُ في عينيها وَلَعًا به، رغم أنني لم أكن أمتلك ثمنه، وبعدما خروجنا عدتُ مُسرعًا للبائع وطلبتُ منه حجْزه، وقرَّرتُ القدوم لإحضاره لاحقًا، بعتُ جهاز الكمبيوتر الخاصّ بي، وهاتفي النقّال حتى تمكّنتُ من جمْع ثمنه، وبالفعل تمكّنتُ من شرائه. أخبرتُها ذلك، وكيف أنني ذهبتُ إليها في ذلك اليوم لأقدِّمهُ لها ليكون خاتم خطبتنا، لكنّها كانت أسرع مني في وأد فرحتي وإنهاء كلّ شيء.

بدأت الدموع تنساب من مقلتيها، لم تستطع التحكم فيها أكثر من ذلك، وإقافها هذه المرّة، كانت الدموع المنسابة تتساقَطَ قطراتها على فؤادي فتحرق موضعها، لم أتمالك نفسي وسرعان ما جاوبَتها دموعي، هروَلَت نحو الباب محاولةً الهروب، لكنّي لم أمنحها مجالًا للهرب مجدّدًا؛ جذبتُها برفقٍ مِن يدها حتى استوقَفتُها أمامي.

-»لا مجال للهرب، لن أتركِكِ مجدّدًا، تزوّجيني».

وأمسكتُ إصبعها وقلّدتُها الخاتم رغم تمنُّعها، حاوَلَت نزعه، لكنّي منعتُها.

- «لا يمكنني الزواج بك.»

- «لماذا؟»

- «لقد بتَّ تعرف كلّ شيء الآن، أنا لم يبقَ لي في هذه الحياة إلا القليل، أنا في أيامي الأخيرة».

- «لا أحد منّا يعلم متى وكيف يفارق الحياة؟! ومن يدري من منا سيموت قبل الآخر، وإذا كنتُ أنا في مثل موقفك هل كنتِ ستتخلّين عني؟ أجيبي؟»

نكَّسَت رأسها ولم تُجِب.

- «كلّ ما يهمّني أن أقضي ما بقي مِن عمري إلى جوارك يوم، شهر، سنة، حتى وإن كانت دقيقة واحدة، سأعيش على ذكراها بعد ذلك ما بقي لي في الحياة».

لكنّها أصرت على تمنُّعها وتشبثت برفضها، «اتركني لحالي وغادر رجاءً!»، قالت.

وفجأة دخل الجميع؛ سماح، والديها، شقيقها، وأيضًا شقيقتها، وكأن الأرض انشقت عنهم وأوجدتهم، يبدو أنهم كانوا يُتابعون مجْرى الحدث بيننا من بدايته، وينتظرون اللحظة المناسِبة للتدخُّل، وتقديم النصـيحة.

- «يا ابنتي لا أحد منّا يعلم ما يخبِّئهُ له الغدُ بيْن طيّاته، كفاكِ عنادًا»، قال والدها.

وهنا التقَطَت سماح طرف الحديث: «يكفي ما أضعتِهِ عليكما مِن سنوات بعنادك، كان بإمكانكما أن تغتنما كل دقيقة فيها لتكون عمرًا كاملًا يحفل بأجمل اللحظات وأسعد الذكريات، بدلًا مِن سنوات الحرمان التي عاناها كلاكما».

وهنا أكمَلَ شقيقها: «لا ترتكبي الخطأ نفسه مجدَّدًا».

صمَتَتْ، وكأنها تفكر في الأمر، ونحن نرقبها جميعًا، كنتُ أعلمُ أنها تودُّ الموافقة رغم تردُّدها. وهنا أسعَفَتْها شقيقتها الصغرى: «سأحضـر الشـربات»، وهَمَّت بالخروج، لكنّ أمل نادت عليها: «انتظري»، ثمّ موجِّهة حديثها لي: «والدكتورة أسماء!».

- «أخبرتُها بكلّ شـيء، وأنهيتُ الأمر مُسبقًا»، أجبت.

كان ذلك إيذانًا بالموافقة، وعندها أطلَقَت والدتها زغرودة مدوية؛ اهتزت لها جنبات الشقة، وتردد صداها في مختلف طوابق البناية، وغمرتنا جميعًا سعادة بالغة، لا أدري إلى متى يمكن أن تدوم؟ وكم مِن الوقت سنقضـيه معًا؟ أو ما سنتقاسمه معًا مِن آلام مرضها، لكنّها بالتأكيد لا توازي في حجمها ذرة من قسوة فراقها عني في المَاضـي.

هي

الحياةُ ما أكثر تعقيداتها؛ سهلة يسيرة، صعبة عسيرة، تمنحنا بقدر ما تسلب منا؛ لنخرج منها صفر اليدين في النهاية، وقد تساوت فيها أفراحنا وأتراحنا. يمكن أن نقول: «إنها مجنونة تقوم على التناقض»، ويمكن أن نشهد لها بالعبقرية، ونمنحُها صِفة الحكمة، ولا يكون أمامنا سوى الرضا والقبول بما تقدمه لنا من اختيارات، وَلكن من ذا الذي يصل إلى تلك المرحلة من القناعة، ووأد بذرة التمرد داخله.

كنت في قمة سعادتي؛ والحياة تستقبلني مُشرعة اليدين، تستعد لاحتضاني، دون أن أدري أن سعادتي فيها وقتية، وأن ضحكتها زائِفة خادعة؛ لم أكد أفتح لها ذراعي وأرتمي في أحضانها، حتى فوجئت بها تستل خنجر المرض وتغرسه في أحشائي، أنا أخُط كلمة البداية في دفتر الحياة، وهي تسبقنى وتكتب نهايتي فيه .

***

من اللحظة الأولى التى رأيته فيها، عرفت فيه قاتلي بلحظ الحب، لم يكن من العسير عليّ أن ألاحظ اهتمامه الزائد بي، من المرة الأولى التي التقينا فيها مع أول أيامي الجامعية، لم أكن أتواجد في مكان إلا ورأيته يدور في محيطي، الممرات، الكافتيريا، قاعة المحاضرات، فناء الكلية، ...، مثل النحلة أو الفراشة التى تدور في محيط وردة، لكنني لست وردة، وهو أيضًا ليس نحلة أو فراشة، أنا ابنة هذا المجتمع الشرقي الذى يراه ذئب، وينظر إليها على أنها حمل، هو الصياد، وهي الفريسة؛ وبالتالي لا يمكن أن تجمعهما علاقة.

لا أنكر أن أمر اهتمامه المبالغ بي قد أرضى شيء من غروري؛ أنا في النهاية -وقبل أن أكون ابنة مجتمعي- أنثى، وما تنشده كل منا، ويجذب انتباهها، هو الاهتمام. وبمرور الأيام كنت على موعد مع المزيد من الاكتشافات بخصوصه، والتي تؤكد -بما لا يدع مجالًا للشك- ترصده لي، لم يكن من زملاء دراستي، كان في عامه الجامعي الثاني، كما كان يدرس تخصصًا مختلفًا، وإن كان في ذات الكلية.

وبينما كنت أدرس علم النفس الإنساني، ونظريات التطور السلوكي، كان يدرس هو الأدب الإنجليزي، في نفس الوقت الذي أعاني فيه لفهم نظريات داروين وفرويد، كان يستمتع بإبداعات «تشارلز ديكينز» و«وليم شكسبير»، ومع ذلك كان يحضر أغلب محاضراتي؛ وهو ما كان يدفعنى للتساؤل، متى ينتبه لدروسه؟!

كان يستغل أي حجة، ويتحين كل فرصة للتحدث إلي فيها، بعد أن أصبح صديقًا مشتركًا لكل أصدقاء وزملاء دراستي، وهو ما كان يثير اندهاشي؛ متى تمكن من فعل كل ذلك؟! وكيف تعرف إلى كل هؤلاء؟! وهل يفعل كل ذلك من أجلي؟! لأجلي أنا . كان هناك الكثير من المشاعر والكلمات التي فضحتها عيناه، وهو ما كان يرعبني؛ كان الأمر غريب وجديد عليّ، لكني مع كل ذلك لم أكن لأسمح لمشاعر الاهتمام، أو لنقل الفضول، التي بدأت تتكون داخلي أن تذهب لأبعد من ذلك؛ أنا ابنة أسرتي المحافظة، التي أحسنت تربيتي على التفريق بين الصواب والخطأ، وما أشعر به خطيئة كبرى، بل جريمة تستحق العقاب، والحب ...، هل تجرأت وقلت الحب! ترديد هذه الكلمة ذات الحروف الأربع قادر على زلزلة كياني، وإضرام النيران في مشاعري، الحب لا يكون إلا عبر مسرب واحد، «الزواج»، ونحن ما زلنا صِغارُ لنسير على دربه .

***

كان يحاول إثارة اهتمامي بشتى الطرق والوسائل، في إحدى المرات سألتني صديقة أمامه عن فناني المفضل، وكان جوابي: «الدنجوان، أحمد رمزي»، لأفاجأ به، وقد تغير نمط ملابسه وقصة شعره؛ ليصبح نسخة متطابقة منه، لم يكن ينقصه سوى أن يمارس رياضة الملاكمة، وأن يدرس الطب لا الأدب مثله .

وما أن لاحظت زميلتي هذا الأمر، حتى مازحتني قائلة: «مجنون أمل»، وهو ما جعلني أغوص في خجلي، وحفزني أكثر لمقاومة أية مشاعر بدأت تتبلور داخلي تجاهه.

وهي النميمة التي تسربت إلى بقية الزملاء؛ حتى صار لقبه بينهم «المجنون»، «المجنون جاء ... المجنون ذهب»، وعبارات أخرى أصبحت تلقى على مسامعي، كنت أحاول تجاهلها جاهدة، وادعيت عدم اكتراثي لها، ولتجاوز المزيد من التعليقات السخيفة، حاولت تجنب لقائِه، كنت ما أن أراه قادم من بعيد، حتى أسارع في الانصراف، وإن تصادف واجتمعنا، أغلق أمامه كل طريق، يمكن أن يفتح من خلاله مجال للحديث .

لكنه لم يستسلم؛ وقرر أن يتمادى إلى أبعد من ذلك في تصرفاته.

فوجئت به، وبينما كنت أقف وسط عدد من زميلاتي، إلى جوار واحدة من أشجار السرو الكثيرة المنتشرة في فناء الكلية، وفي حركة غير متوقعة مني، يجثو على إحدى

ركبتيه أمامي، ويده تمتد نحوي بزهرة توليب حمراء اللون، وأنا غارقة وسط صدمتي ودهشتي؛ بعد أن شل تصرفه تفكيري، في حين بدأت صديقاتي يتغامزن بينهن، وهن يتبادلن تلك الابتسامة الماكرة.

-«أنا أحبك»، قال.

حاولت تدارك الموقف وقلت:

-«ما هذا التصرف الطفولي غير المسؤول؟! وماذا تنتظر مني في المقابل، أن أرتمي في أحضانك، وأقول إنني أبادلك نفس المشاعر».

-«لا أنتظر شيء في المقابل، أحببتك وقررت إخبارك بذلك، تقبلي، ترفضي، هذا شأنك». أجاب.

وقبل أن يبدر مني أي تعليق نهض على قدميه واقفًا، اقترب مني أكثر؛ حتى زالت المسافة بيننا، وأصبح بإمكاني أن أشعر بعبير أنفاسه، سحب يدي، التي استسلمت له منقادة، وكأنها جزء زائد عن جسدي، لا أملك السيطرة عليه، أو عضو ثائر منه، تمرد عليّ ورفع راية العصيان. وضع الوردة في راحتي، وأطبق أصابعي عليها، قبل أن ينسحب من المكان، ويتركني نهبًا لمشاعري.

اختفى بعدها، ولم يعاود الظهور، وبعد ما كنت أتعثر فيه في أي وقت، وفي كل مكان تبخر، وأصبح كما يقول المثل:»فص ملح وذاب»؛ وبدأت أتسأل :»إلى أين ذهب؟! ولماذا لم يعاود الظهور؟! ورحت ألوم نفسي وأعاتبها قائلة: «هل كنت جافة معه وقاسية إلى هذا الحد؟!» قبل أن تعترض عليّ وتجيب: «يقترب أو يبعد، يظهر أو يختفي، وما شأني أنا؟! ألم يكن هذا ما أردته من البداية»؛ قبل أن أعود وأتساءل :»هل يمكن أن أكون ...؟! أنكون قد تبادلنا الأدوار؟! وهل يمكن أن يكون قد تعمد أن يذيقني من ذات الكأس الذي جرعته إياه؟! هل بت أنا من يترقب رؤيته ويتحين ظهوره؟!

لم أستطع حسم الأمر والإجابة على أسئلتي، ومن يدري، ربما كنت أهرب منها، لكن ما أعلمه جيدًا أن تفكيري أصبح مشغولًا به؛ ورحت أبحث عنه وأتحين ظهوره في كل وقت وفي مختلف الأرجاء؛ حتى أنني كدت أن أجن وأنا أتخيل رؤيته.

وأخيرًا ظهر، ورأيته يتقدم نحوي من بعيد؛ لم أستطع إخفاء تلك الفرحة العارمة التي اجتاحتني، وراحت تزلزل كياني، وبدت واضحة في ملامحي، وإن حاولت

جاهدة أن أسيطر عليها، بعد ما فشلت في وأدها، ولم يخطر في بالي ساعتها سوى الانسحاب السريع قبل أن يلتقيني؛ بعد أن اكتشفت أنني قد خسرت معركتي أمامه وأمام نفسي؛ ولم يبق أمامي سوى الفرار.

وما أن بدأت أخطو أولى خطواتي في الاتجاه المعاكس حتى فوجئت به -ومثل كل منتصر- يهرول نحوي، ويقطع علي طريق انسحابي.

-«اشتقت إليّ؟! ... اعترفي ولا تنكري ذلك». قال، قبل أن يكمل وكأنه يجيب على نفسه: «أنا أيضًا اشتقت إليك كثيرًا، لو كنت أعلم أن تغيبي من المحاضرات بسبب وفاة جدي، وسفري مع أسرتي إلى بلدتنا في الصعيد؛ لحضور مراسم الدفن والعزاء، سيجعلك تشتاقين إليّ، لعَجلتُ بموته منذ أمد بعيد»، وابتسم.

ولم أستطع السيطرة على تلك الضحكة العالية التي بدرت مني، وتطايرت من فوهة بركان سعادتي، وأصبحت حائرة بماذا يمكنني أن أجيب عليه؟! واكتفيت بالابتسام وتقديم واجب العزاء .

وهكذا بدأت قصتنا، كان «فارس» هو الفارس الذي تتمناه كل مهرة أصيلة، لتُسلم إليه رَسنها. الإنسان الذي ترغب فيه كل فتاة ليصبح لها الزوج والحبيب، الأب والأخ.

ورحت أنهل من نبع السعادة، وأرتوي من جنان الحب، ولكن من ذا يستطيع أن يحافظ على أبدية السعادة! وسمة الخلق في هذه الحياة أن يعيش الإنسان في كَبَد، لعله يتمكن من النجاح في اجتياز اختباراتها؛ ومعها يستحق أن يخلد في نعيم الأبَدية.

***

رحت أخطط وحبيبي لذلك اليوم، الذي نجتمع فيه تحت سقف منزل واحد، لكنه القدر وحده من يمتلك بوصلة توجيهنا في هذه الحياة، ويبدو أنه كان له رأي آخر. كان المرض ينتشر في جسدي، ويتمدد فيه تمددًا بطيئًا دون أن أشعر به، وبسوء تقدير مني، اعتقدت أن ذلك النزيف، الذي اعتاد أن يعاودني من وقت لآخر على شكل سائل وردي اللون كريه الرائحة، بين فترات الدورة الشهرية، هو جزء منها وأحد توابعها.

كما أن خجلي كان يمنعني من الحديث في مثل هذه الأمور، والإفضاء بها إلى غيري،

ولو حتى على شكل مجرد استفسار أو تساؤل عابر. ولكن من أين لي أن أعلم أنها كانت رسول المرض ونذير شؤمه؟!

لكنني في ذلك اليوم شعرت بتدفق إفرازات مهبلية كثيفة؛ أحسست معها بانقباض في صدري، وأصبح خوفي مضاعفًا؛ لا يمكن لها أن تكون أمرًا طبيعيًا، وسارعت لإخبار والدتي، التي توقفت عن إعداد طعام الغداء، وطلبت مني تغير ملابسي على الفور؛ والاستعداد للتوجه إلى عيادة الطبيبة النسائية، ولم تنس تعنيفي لعدم إخبارها سابقًا .

استوقفنا أول سيارة «تاكسي» قابلتنا في الشارع وصعدنا إليها مباشرة، دون أن تحاول والدتي -كعادتها- مماكسة السائق في تقدير الأَجر، الذي دائمًا ما يبالغون في تقديره. كانت في حالة من القلق والاضطراب الشديدين، دفعاها للتغاضي عن جشع السائق، ودفعت له ما طلبه دون نقاش.

ومن المفترض في مثل هذه الأوضاع أن تعمل والدتي على طمأنتي، إلا أن واقع الأمر أنني من عملت على تهدئة روعها، دون أن أدري، لماذا كل هذا القلق والاضطراب منها؟! مجرد نزيف وإفرازات، لا بد وأنها أمر عارض، وهكذا فكرت.

كان علينا أن ننتظر الطبيبة مع خمس مريضات أخريات، بعد أن حجزنا موعدًا من السكرتيرة، ودفعنا ثمن الكشف مقدمًا، اثنتان منهن كانتا حاملين، وهو ما دفعني للتخمين أنهن قد قدمن لمتابعة نمو الأجنة، أما الثلاث الأخريات فلم تظهر عليهن أعراض واضحة للمرض، يمكنني أن أخمن من خلالها ما يعانين منه، وقدمن لأجله . حاولت إحداهن الاستفسار عن سبب قدومنا لزيارة الطبيبة، ومن منا المريضة، أنا أم والدتي؟! يبدو أنها أرادت أن تقتل الوقت بالنميمة، وما أن شرعت في الإجابة عليها، حتى حدجتني والدتي بنظرة تحذيرية، فهمت معناها وصمت من فوري، وعندها قامت تلك الفضولية بتحويل السؤال إلى مريضة أخرى، وراحت تشبع نهمها للكلام منها .

كان ترتيبنا الثالث في أسبقية الحجز بين المريضات، اللاتي اكتظ بهن وبمرافقيهن بهو العيادة بعد ذلك، وهو ما يعني أن القادمات متأخرات منهن كن ينتظرن دورهن وقوفًا على الأقدام.

وما أن دخلنا على الطبيبة حتى شرعت والدتي في الحديث، تحدثت عن الدماء وردية اللون والإفرازات الكثيفة، ولم تنس تأنيبي مجددًا؛ لعدم إخبارها في وقت

أبكر، والطبيبة تستفسر مني في بعض النقاط، مثل متى لاحظت وجود مثل هذه التغيرات؟! وهو السؤال الذي لم أستطع الإجابة عليه تحديدًا؛ قد يمتد الأمر لعام، ربما لأعوام، كان مجرد نزيف متقطع، لكنه لم يكن بتلك الغزارة التي هو عليها الآن. - «إن شاء الله خير». قالت الطبيبة، قبل أن تطلب مني التمدد على سرير الكشف المستقر في أحد أركان الغرفة، وتتبعني بعد أن سحبت ستارة صغيرة تدلت من السقف، كانت تنزوي في أحد الأركان، وراحت الطبيبة تقوم بعملية إجراء الفحص المهبلي، بعد أن تجردت من ملابسي السفلية، وباعدت بين ساقي، وللتخلص من إحراجي وخجلي أغمضت عيني، وغطيتهما بأصابعي. وما أن انتهت الطبيبة من الكشف، حتى تركتني أعيد ترتيب ملابسي، وعادت إلى موضع جلوسها خلف مكتبها.

-«طمئنيني يا دكتورة». قالت والدتي.

- «اطمئني». أجابت، قبل أن تكمل: «هناك تغير واضح في شكل الرحم، وعملية الفحص الأولى تدل على وجود كتلة ورمية في الرحم».

كنت قد انتهيت من هندام ملابسي، وعدت إلى موضع جلوسي انا الأخرى قبالة والدتي، التي قاطعتها، وقد ارتسم على وجهها شعور بالفجيعة: «هل يعني ذلك...؟!» ولم تكمل، وكأن الكلمات قد توقفت في حلقها؛ لتتركني حائرة؛ فما الذي تعنيه الطبيبة وتدركه والدتي دون أن تقوله؟!

- «هذا الكلام سابق لأوانه». أجابت الطبيبة، وهي تخط مجموعة من الكلمات الإنجليزية على ورقة بيضاء، انتزعتها من كتيب صغير، قبل أن تمررها إلى والدتي:

- «سيكون عليكم إجراء تصوير فوق صوتي؛ لقياس ورؤية سمك الرحم. بالإضافة لعمل تحليل، بأخذ «خزعة» من الرحم، وما أن تصبح الأشعة والتحاليل جاهزه سأكون في انتظاركم».

***

« مثل الأطرش في الزفة» كنت؛ في صبيحة اليوم التالي -مباشرةً- اصطحبتني والدتي إلى أحد المراكز الطبية؛ لعمل التحاليل وصور الأشعة التي طالبت بها الطبيبة.

وبعد أيام عرجت على المركز لإحضار نتائج التحاليل وصور الأشعة، لتصطحبني والدتي مرة أخرى لزيارة الطبيبة، بناء على موعد مسبق حصلنا عليه هذه المرة عبر

الهاتف، وكان علينا أن ننتظر أيضًا قدوم الطبيبة، التي جاءت متأخرة.

جلسنا وسط مجموعة من المريضات الجدد، اللاتي اكتظت بهن العيادة، وإن لم تبادر إحداهن للسؤال عن سبب قدومنا، ومن منا المريضة أنا أم والدتي؟! كان الاختلاف الوحيد أنه كان لنا أسبقية الحجز؛ فكنا على رأس قائمة المنتظرين.

لم يطل انتظارنا لأكثر من نصف ساعة، وما أن جاءت الطبيبة حتى أذنت لنا بالدخول عليها، وعلى الفور تناولت صور الأشعة والتحاليل، وشرعت في فحصها وتدقيق النظر فيها أكثر من مرة، وكأنها تحاول التأكد من شيء ما، دون أن يرتسم على ملامحها أي تعبير، يمكن أن نستشف من خلاله شيء.

ومثل الخبيرة المدربة، التي مرت بمثل هذا الموقف عشرات المرات من قبل، وربما المئات، تحدثت، بعد أن اكتسى صوتها بطبقة خفيفة من الحزن، قبل أن تقول:

-«للأسف صور الأشعة والتحاليل تؤكد إصابة أمل بسرطان الرحم، والحالة متقدمة».

وراحت تردد الكثير من الكلام الطبي، من نوعية وجود توازن دائم -داخل أجسادنا- بين كمية الخلايا الميتة وتلك المتجددة، والتى تنتج عن طريق عملية الانقسام، لكن عند حدوث انقسام غير منتظم، يتم إنتاج كمية أكبر من الخلايا؛ نتيجة لإفراط الإفراز في هرمون «الإستروجين»، على حساب هرمون «البروجسترون»؛ مما يتسبب في ازدياد سماكة الرحم؛ نتيجة استمرار النمو في الخلايا بالشكل غير الاعتيادي، وهو ما يطلق عليه «سرطان الرحم».

نزل عليّ الخبر كالصاعقة، وأخيرًا علمت ما أفلحت والدتي في التفلت من إخباري به، وكنت كلما سألتها عن ماذا كانت تقصد بحديثها مع الطبيبة في لقائنا الأول أجابت: «لا شيء». في حين لطمت والدتي صدرها، وراحت تنعي حظها وحظي.

وكان أول ما ورد في ذهني، ما أن سمعت كلمة «سرطان» هو «الموت»؛ دائمًا ما كنت أسمع الكلمتين كلتاهما مقرونة بالأخرى، السرطان يعني تذكرة خروج نهائية من هذه الحياة وبلا عودة.

انتظرت الطبيبة قليلًا؛ حتى نتمكن من استيعاب الصدمة، ولكن أي صدمة تلك التي يمكن أن نتمكن من استيعابها! قبل أن تكمل حديثها في هيئة سؤال:

-«هل سبق وعانى أحد أفراد الأسرة من سرطان الرحم؟! مثل هذه الحالة لا تظهر

بهذا الشكل المتقدم، وفي تلك السن المبكرة إلا لأسباب وراثية؛ في الحالات الطبيعية تأخذ ما بين عشرة وخمسة عشرة عامًا للظهور بتلك الصورة التي تظهرها الأشعة، أي من المفترض أن تظهر عادة في سن الأربعين فما فوق».

صمتت بعدها، وكأنها تنتظر جوابًا، وصمتت والدتي هي الأخرى في المقابل، بدا لي أنها كانت مترددة، هناك شيء ما تود قوله، وما أن تقترب من حد الإفضاء به حتى تتراجع. في حين كنت أنا في عالم آخر، ولم أفق من صدمتي سوى على صوت والدتي؛ لتلقي بي هي الأخرى في أتون صدمة جديدة، زادت من حجم صدمتي الأولى وضاعفتها؛ ولأجد نفسي بين شقي رحى فجعتين، راحت كلتاهما تعتصر تفكيري.

-« والدتها عانت من نفس المرض؛ وتوفيت على أثره».

كانتا الصدمتين كبيرتين عليّ، لأتمكن من تحملهما في الوقت ذاته، في لحظة واحدة أكتشف إصابتي بالسرطان، وفي الوقت ذاته أكتشف أن المرأة التي أعتبرها والدتي ليست كذلك.

آخر ما أتذكره بعد ذلك، أن سحابة سوداء بدأت تقترب مني، وراحت تلتهمني كثقب أسود؛ غِبتُ عن محيطي؛ لأكتشف لاحقًا - بعد أن أفقت- أنني قد فقدت الوعي.

***

فريال أحمد عبد العظيم، اسم والدتي، لطالما تساءلت، لماذا يكتب اسمها في شهادة مولدي «فريدة»، بخلاف شقيقي وشقيقتي، والإجابة التي حصلت عليها، «إنه خطأ مطبعي، تسبب فيه موظف السجل المدني»، وهو ما صدقته واقتنعت به، وها أنا ذا أكتشف سبب هذا الخطأ، الذي لم يكن خطأً في يوم من الأيام.

المرأة التي اعتبرتها والدتي لمدة واحد وعشرين عامًا، هي خالتي في واقع الأمر، توأم والدتي البيولوجية، التي توفيت بذات المرض، بعد أن أورثتني إياه لحظة مولدي، وهو ما رجحه الأطباء.

أخبرتني والدتي، خالتي، أنني سبب ارتباطها بوالدي، وهي الفكرة التي رفضتها في البداية، وقاومتها لأكثر من عام، وكلما ازداد عدد مقترحي الفكرة ومؤيديها، كلما ازداد تمنعها، وتشبثت برفضها أكثر، إلى أن انهارت مقاومتها مع أول كلمة نطقت بها في صغري، حينما خاطبتها بكلمة «ماما»؛ وافقت على إثرها على فكرة الزواج

بوالدي، لرعايتي والاهتمام بي، قبل أن تتحول علاقتهما بمرور الأيام، ومع العشرة إلى حب، ومودة ورحمة.

لكن رغم ما تحمله هذه القصة في طياتها من معانٍ جميلة، إلا أنها لم تستطع انتشالي من صدمتيَ، وإن أردت التغاضي عن قصة وَالدتي البيولوجية، إلا أنها لم تنس أنني ابنتها، ولم ترحل دون أن ترسل لي ذكرى منها، وأورثتني مرضها اللعين، الذي راح يؤرق راحتي، ويهددني بسلب حياتي.

***

لم أكن سعيدة الحظ بما يكفي لاكتشاف المرض في مراحله المبكرة، وكثيرًا ما تساءلت: «يا رب لماذا لم أتمكن من اكتشاف المرض في المرحلة صفر؟! التي تنمو خلالها الخلايا السرطانية في الطبقات السطحية من عنق الرحم، أو حتى في مرحلته الأولى التي يتراوح فيها عمق الغزو لهذه الخلايا، ما بين خمسة وسبعة ملم، وساعتها كان بإمكاني الشفاء منه بأقل الخسائر؛ باستئصال عنق الرحم، دون أن يؤثر ذلك في قدرتي على الإنجاب».

لماذا لم أتمكن من اكتشافه سوى في بدايات مرحلته الثالثة؟! بعد أن تجاوز المرحلة الثانية، والتي يبدأ الانتشار فيها إلى خارج الرحم، لكنني لا ألبث أن أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأستغفره؛ إنها إرادة السماء، ألا أكتشف المرض سوى في هذه المرحلة المتأخرة، مع بداية انتشاره وتمدده إلى جدار الحوض.

ولم يكن من حل طبي سوى باستئصال الرحم؛ على أمل أن تكون هذه الخطوة هي بداية السيطرة عليه، لكن وسيلة علاجي جد قاسية؛ ومعها أودع أي أمل في أن أصبح أم، وأستأصل إلى الأبد أي حنين إلى جنين يمكنني أن أشعر به يتحرك في أحشائي، وأتحسس معه بطني كل يوم؛ لأدرك في أي مرحلة من مراحل تكونه أصبح، أدرك أخيرًا أن حلم أمومتي قد أصبح من المستحيلات.

لأجل من سأدور على محلات الملابس وأحذية الأطفال؟! لمن سألقم نهر الحياة من ثديي؟! هل أصبح قدري أن أصبح أرض جرداء لا يجدي فيها أي حرث؟! أن أصبح شجرة مبتورة لا تثمر.

إنه قدري وعلي التسليم به، لكن لم يكن بإمكاني أن أظلم أحد معي، لم يكن باستطاعتي حرمان «فارس» من حلم الأبوة، كنت أعلم جيدًا أنه لن يتخلى عني إن هو علم بحقيقة مرضي، ولكن لم يكن باستطاعتي -أيضًا- القبول بمثل هذه

التضحية منه، وسعادتي أن أراه سعيد في حياته، وهل للمحب غاية سواها لحبيبه! وقدره أن يحقق جميع أحلامنا، حتى وإن كانت بدوني، ولتحقيق ذلك كان عليه أن يكرهني؛ لينساني؛ وعندها سيتمكن من مواصلة حياته.

ذهبت للقائه وأنا أرسم ابتسامة مستعارة، جاهدت كثيرًا لكيلا يكتشف زيفها، ذهبت وأنا أقدم قدم وأؤخر الأخرى. قررت الانسحاب من حياته بشكلٍ قاسٍ، كنت أعلم أنه سيتعذب في البداية، لكنه سيتمكن من تجاوز أحزانه في مرحلة ما؛ كلنا بشر في النهاية، ونعمة «النسيان» من أجمل هبات الخالق إلينا.

-«طريقك ما زالت طويلة، لم يعد بإمكاني أن أتحمل الضغوط التي أتعرض لها من والدي أكثر من ذلك؛ ليذهب كل منا في طريقه».

بكيت، وبكيت كثيرًا، إلى أن جفت دموعي؛ بعدما عجزت مآقي عن مجاراة أحزاني.

وبعد أيام كنت في غرفة العمليات، تمنيت أن تفشل الجراحة، وألا أستيقظ مجددًا، كان دكتور التخدير يشق لحقنة المخدر طريقًا في وريدي، وأنا أبتهل بدعاءٍ واحد: «اللهم اقبضني إليك سريعًا».

تمنيت أن أفارق الحياة؛ قبل أن يتم استئصال أمومتي باستئصال رحمي، لكنني استيقظت بذلك الجرح الغائر في بطني، وسم أمومتي المذبوحة، ولم تكن آلام ما بعد الجراحة لتقارن بذلك الخواء النفسي الذي شعرت به، مهما حاولت التماسك لأبدو قوية .

***

أصبحت حياتي تنحصر بين البيت والمستشفى، على أن معاناتي لم تنته باستئصال الرحم؛ بدأت أخضع لمجموعة من العلاجات المختلفة. مرة يكون عليّ التردد فيها على المستشفى لخمس مرات أسبوعية؛ للتداوي بالعلاج الإشعاع الخارجي، وهي العملية التي كان عليّ تجربتها لأسابيع. وفي أحيان أخرى يكون العلاج إشعاعي أيضًا، لكن هذه المرة بشكل داخلي، على شكل أنبوبة صغيرة، يحتوي على المواد الإشعاعية، يتم وضعها داخلي لعدة ساعات، وفي بعض الأحيان لمدة ثلاثة أيام متواصلة.

وفي كل مرة يكون عليّ أن أقاسي فيها مذاقًا جديدًا للألم، حسب نوعية العلاج المتبع، لكن أشدها وطأة عليّ كان العلاج الكيماوي، كانت تلك الأدوية، أو بالأحرى المواد

الكيميائية، التي يتم إدخالها إلى جسدي عن طريق «الجلوكوز» أو يكون علي تناولها على شكل شراب كريه، حنظلي الطعم، لكنه بدلًا من أن يعمل على تدمير الخلايا السرطانية وإيقاف نموها، كان ينهك صحتي المعتلة، ويزيد من شحوب بشرتي وتساقط شعر رأسي وحاجبي وجفوني، وبعد كل جلسة كنت أعود منهكة، خائرة القوى، أقضي بعدها ساعات طوال طريحة الفراش، ألوذ من آلامي بالنوم.

وبعد كل دورة علاجية يكون علي إجراء مجموعة من الفحوص والتحاليل؛ لمعرفة مدى استجابة جسدي للعلاج المتبع، وعندها يجتمع الأطباء، أحيانًا يقررون تكرار الدورة العلاجية، وأحيانًا أخرى يتم استبدالها بأخرى جديدة.

***

بالرغم من مشاغلي وهمومي الكثيرة إلا أنه ظل شاغلي وهمي الأكبر، ومع أنني قررت الابتعاد عن حياته والانسحاب منها نهائيًا، إلا أن ذلك لم يمنعني من متابعة أخباره وتقصيها.

أنشأت صفحة مستعارة في فضاء الـ«فيس بوك»؛ لتكون جواز سفري إليه، أرسلت له طلب صداقة، ورحت أنتظر -على أحر من الجمر- أن يقبل صداقتي، وإذا كانت الحياة قد بخلت على بدور الحبيبة، فلن أسمح لها أن تبعدني عنه بشكل كلي، حتى وإن كان رابطنا الوحيد عبر عالم افتراضي، بعيد كل البعد عن أرض الواقع.

لكن ماذا أفعل إن هو رفض الإضافة وبخل عليّ بها؟! أتساءل، وأحاول التغلب على ذلك الشعور، الذي يعتريني بالإحباط واليأس، وأجيب على الفور: «سأنشئ صفحة أخرى باسم جديد وأنشد صداقته»، لكنه وفر علي كل هذه المحاولات، وقبل صداقتي على الصفحة التي أنشأتها باسم «سراب الأحلام».

كان سلواي الوحيد متابعة ما يكتبه من إدراجات، يتركها تسبح في سماء الفضاء الأزرق، أعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا وأتنسم فيها عبيره، رغم ما يصيبني منها من ألم؛ مع ما تحملها كلماته من حزن بين، فاضت به نفس مشبعة بالألم .

كنت أستعيد ملامحه مع كل صورة شخصية ينشرها، رغم قلتها، كنت أعلم جيدًا مدى كرهه لالتقاط الصور، واعتدت أن أتعجب من موقفه قائلة: «الصورة تخلد الذكرى»، فيجيب: «الذكرى موطنها القلب، تخلد فيه، حلوها ومرها، واحدة نعمل على تكرارها، والأخرى نتجنب الوقوع في شراكها من جديد».

في إحدى المرات شارك إدراجًا ضرب فيه موعدًا، بتوقيت مناقشته لرسالة الماجستير، كنت مشتاقة لرؤيته؛ وقررت المغامرة والحضور، وقبل الموعد المحدد بساعة واحدة ذهبت لأحد محال الملابس خلسة، بعيدًا عن أعين والدتي؛ كنت أخشى أن تضبطني متلبسة بحبه، وأنا التي ترفض مقترحها إخباره بحقيقة مرضي، ومنحه فرصة الاختيار. اشتريت نقابًا وارتديته، كان السواد يغطيني من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، لم يكن يظهر مني سوى عيني اللوزيتين، اللتين طالما تغزل فيهما، وخشيت أن تلتقي أعيننا ويكتشف هويتي؛ فارتديت نظارة سوداء.

جلست في الصفوف الأخيرة، ورحت أتابعه من بعيد وهو يناقش أساتذته، وكل منهم يطرح رؤيته حول الرسالة، يُسأل ويُجيب، إلى أن تداول ثلاثتهم في نقاش منفرد لدقائق معدودة، أعلن أحدهم بعدها نيله لدرجة الماجستير مع مرتبة الشرف الأولى.

كنت في قمة سعادتي، وكأنني من حَصِلت على الدرجة العلمية، لحظة عابرة من السعادة المفرطة، تجرعها قلبي، بعد سنوات عجاف ضلت فيها طريقها إليه، عندما هجرتني بفراقه، ما يقرب من ألف يوم لم تكتحل فيها عيني برؤيته.

وما أن أُعلنت النتيجة حتى التف الجميع من حوله يهنئونه، وكم تمنيت أن أكون بينهم! لكنني لم أكن، جمع أوراقه بعدها وهم بالخروج، يحيط به لفيف من الأهل والأصدقاء، كنت ما أزال في موضعي لم أتحرك، رغم أن أغلب من في القاعة هَمَّ بالانصراف، لكن قدميّ خانتاني؛ ولم تسعفاني في الرحيل، هل كنت حقًا متعبة؟! أم تراهما حاولتا منحي أطول فرصة ممكنة للتشبع برؤيته؟!

وما أن صار في محازاتي حتى توقف والتفت نحوي؛ صعقت، وتساءلت هل تراه تعرف علي؟! وادعيت التشاغل بحقيبة يدي، ورحت أعبث في محتواها، وكأنني أبحث عن شيء ما، وأنا أجلد نفسي؛ هل كنت حمقاء لأنني جئت لمشاركته لحظة نجاحه؟! حتى وإن كان من بعيد، هل تراه شعر بوجودي؟! ولكن كيف، وأنا لا يظهر مني شيء؟! ورحت ألوم نفسي؛ لأنني ونتيجة لغبائي وتهوري وضعت تضحيتي على المحك، ورجحت أن يكون ما جذب انتباهه هو رائحة عطري لكنه سرعان ما أكمل طريقه؛ مندفعًا بتلك الكوكبة التي أحاطت به وسار في ركابها.

وما أن خرج من القاعة حتى وضعت حقيبتي فوق كتفي، وخرجت مسرعة لا ألتفت إلى شيء ورائي. مستسلمة لدموعي، التي راحت تنهمر بغزارة؛ لتخفف عني شيء من ذلك الوجع المتأجج داخلي.

ولم تكد تمر سوى أشهر قلائل على نيله درجة الماجستير حتى فوجئت بنبأ ارتباطه، من المباركات والتهاني التي انهالت على صفحته في الـ»فيس بوك»، رغم أنه أمر توقعت حدوثه منذ مدة طويلة، إلا أنني لم أستطع التحكم في مشاعري وقتها.

كنت حائرة بين الحزن والفرح، هل أسعد له، بعد ما سارت الأحداث في المجرى الذي أردته لها؟! وبما أنه قرر الارتباط فقد تمكن من تجاوزي، وعليّ أن أتمنى له حياة سعيدة. أم أحزن، لأن امرأة أخرى صارت إلى جواره؟! واحتلت ذلك المكان الذي طالما أردته لنفسي، وحلمت به، أنا في النهاية أنثى؛ وشعورى بالغيرة أمر فطري جبلت به، ولا مقدرة لدي على التحكم فيه أو تجاهله.

لم أكترث كثيرًا لمعرفة المزيد عن الفتاة التي ارتبط بها، من تكون؟! وكيف هو شكلها؟! طويلة أم قصيرة؟! نحيفة أم بدينة؟! وهل اختارها لشبه يجمعنا في الشكل أو الصفات؟! أم لقناعة بها؟! هل يكون قد أحبها؟! وأسئلة أخرى، ظلت تعاودني من حين لآخر، رغم محاولتي التخلص منه وطردها، إلا أنها دائمًا ما وجدت منفذًا تتسلل منه.

***

إنها الأقدار، نسير بخطاها وما تحيكه لنا من تدابير، أقرر تناسبه والمضي قدمًا في حياتي للأمام -رغم تأكدي من استحالة تحقيق ذلك- فإذا بها تلقي به في طريقي؛ وتعيدني من جديد إلى نقطة البداية.

كنت في المستشفى ذلك اليوم؛ لإجراء مراجعة دورية، حينما فوجئت به أمامي؛ لم أدري كيفية التصرف؟! كنت قد استنفدت خيار الهروب والاختفاء، لو أنني رأيته دقيقة أبكر دون أن يراني، لاختفيت في أي ركن أو زاوية إلى أن يمر، لكنني وجدت نفسي أمامه وفي مواجهته مباشرة. أنا أخطو نحو المصعد، وهو قد خرج منه للتو، ويسير في الاتجاه المقابل.

تثاقلت خطواتنا، كان وقع اللقاء غريب عليّ وغير متوقع، وتمنيت لو أنني ارتميت في أحضانه وشرعت في البكاء، بكاء مرير، بامتداد سنوات عمري التي لم أعرفه فيها، وبحجم تلك التي رحلت عنه فيها مرغمة.

شعرت به يتقدم نحوي، لكن شيء ما دفعه لتغير خطواته في آخر لحظة؛ وأكمل طريقه مبتعدًا، في حين اكتفيت بإيماءة من رأسي ما أن مر بي، وأكملت طريقي نحو المصعد، ضغطت بيدي على لوحة المفاتيح، وانتظرت صعوده، واستفدت من تلك

الثواني القليلة في التشبع منه بنظري من بعيد.

التقى بالدكتورة «أسماء»، سلم عليها وأطبق براحتيه على يديها، ابتسمت وطأطأت وجهها -الذي تورد خجلًا- نحو الأرض، إذا هي خطيبته.

انتبهت لوجودي؛ وأشارت إليّ لتؤكد على موعدنا القادم، واكتفيت بإيماءة من رأسي، كدليل تأكيد على التزامي به، كان عليّ إجراء بعض الفحوص والتحاليل، والمتابعة معها، لحين عودت طبيبتي المعالجة من مؤتمر طبي سافرت إليه، لكنني في قرارة نفسي كنت قررت تجاهل الموعد وعدم الحضور. حاولت تحمل مشهدهما سويًا، لكنني لم أستطع؛ وقررت عدم إهدار المزيد من الوقت في انتظار المصعد، وهبطت درجات السلم.

كانت ليلة عاصفة لم أتذوق فيها طعم النوم والراحة، تلبدت فيها سمائي بالغيوم، وأمطرت عليّ سيلًا غزيرًا من ذكريات الماضي، مكونة فيضًا كثيفًا، تدفق في جداول وقنوات داخلية، فاضت بعدها من سدود جنوني المنيعة، التي دربتها جيدًا على كيفية كبح جماحها، لكنها كانت من القوة هذه المرة، بحيث عجزت عن صدها وانهارت، ولم أجد في النهاية بُدًا من الاستسلام والتسليم بالأمر الواقع.

وفي عصيرة اليوم التالي فوجئت بشقيقتي تخبرني بقدومه ورغبته في رؤيتي، كنت عاجزة عن استيعاب الموقف؛ وسألتها غير مصدقة: «قدوم من؟!»، قالت وهي تضغط على الحروف «فارس»، «فارس من؟!» قلت، «وهل يوجد غيره!» أجابت.

وسرعان ما لحقت بها «سماح» وأكدت الأمر، وعندها انطلق عقال غضبي، ولم أستطع السيطرة عليه؛ لاعتقادي أنها من أخبره، لكنها أقسمت أنها لم تفعل، وأنها فوجئت به مثلي يزور مقر عملها ويعاتبها؛ لأنها تآمرت معي وأخفت عليه أمر مرضي، ويطلب منها مرافقته والقدوم لرؤيتي.

رفضت الخروج والالتقاء به، ورجوتهم أن يطالبوه بالانصراف، لكنهم -وكأنهم قد تآمروا جميعًا عليّ- رفضوا الانصياع لرجائي، وحثوني على الخروج للقائه، وإخباره بما أود قوله، وافقت مرغمة، وخرجت على مضض مني، وأنا أؤخر نفسي وأحذرها: «إياك والرضوخ، سنطلب منه الرحيل، حتى وإن اضطررت لطرده»، لكنني ما أن صرت في حضرته حتى فقدت قدرتي على الكلام.

عاتبني وشدد من عتابه، حاصرني بكلماته وأحكم الحصار؛ حتى بدأت مقاومتي في الانهيار تباعًا، واستسلمت له ما أن أخرج ذلك الخاتم وطلب يدي للزواج؛ وفي

لحظة ضعف مني وافقت على الزواج به.

كنت أعلم أن موافقتي جاءت متأخرة كثيرًا، بعد أن وصل مرضي إلى آخر مراحله تطورًا، وذهب بي إلى مرحلة اللا عودة؛ مع دخول المرض إلى المرحلة الرابعة، وبدء الخلايا السرطانية في الانتشار إلى منطقة ما بعد الحوض، وتوغلها وغزوها لمخاطية المثانة والمستقيم، وما هي إلا مسألة وقت حتى يتوج انتصاره عليّ بغزو بقية أعضاء جسدي والانتشار فيها.

وللمرة الأولى شعرت بالندم، نعم شعرت بالندم، ندمت على السنوات التي ضيعتها بعيدًا عنه متشبثة بعنادي. أدركت أخيرًا عبثية تضحيتي؛ لأنها لم تسبب لكلينا سوى المزيد من الألم والمعاناة.

ورغم علمه بوضعي الصحي، وأنني لا أملك من الوقت الكثير، إلا أنه أصر على الزواج بي، وكان محفزه الأكبر للتعجيل به، صرنا نسابق الزمن، ونحن لا ندري، هل يمهلنا القليل من الوقت؟! أم أنه سيضن علينا به؟!

***

هو وهي

هو مولعٌ بها أيما ولع، هي مفتونةٌ به حد الجنون، عادا مراهقين صغيرين، يقضيان نهارهما يتسكعان سويًا، وما أن يفترقا حتى يتواصلا عبر الهاتف.

هو ينام على أنغام صوتها ليلًا، وهي تستيقظ على عبير عطره، وقد مر لاصطحابها صباحًا .

صارت هي شغله الشاغل، بعد أن تفرغ لها، وكان أول ما فعله الحصول على إجازة طويلة ومفتوحة من العمل، كما أَجَلَ العمل على رسالة الدكتوراة؛ يريد أن يستثمر كل دقيقة وثانية، ويقضيها بصحبتها، في حين صار هو شعلة الأمل التي تضيء لها الحياة من جديد، بدأت تستمتع بها، وتستسيغ لها طعمًا حلو المذاق، لم تتعرف إليه منذ مدة طويلة.

كل من شاهدهما معًا حسدهما، ورأى فيهما عصفوري حب طليقين، هربا لتوهما من قفص الحياة المزري وتخلصا من قيوده، يمرحان غير عابئين بشيء، وقد صار الكون بامتداد فضاءِه مسرح لهما، غير مدرك أنهما في مرمى صياد حذق، يستعد لإنفاذ سهم قضائه نحوهما.

كانا متعجلين لإتمام مراسم الزواج. هي لا تريد غيره من هذه الحياة، وهو لا يرجو سواها، ولولا اصطدامهما برغبة والدته في إمهالها القليل من الوقت؛ لإتمام مراسم الزواج، لتزوجا في الحال.

كانت قد وافقت على مضض منها، ولا ترى مستقبلًا لهذه العلاقة، «أي عاقل يصر على الزواج بفتاة مقبلة على الموت!»، قالت له. إلا أنها لم تستطع الوقوف أمام رغبته، كانت تعلم ابنها جيدًا، وأنه سيواصل ما عزم القيام به رغم رفضها، ولم يكن باستطاعتها ادعاء المرض والتحصن به، كما فعلت مسبقًا، ومع أنها اضطرت للموافقة، إلا أنها لم تتخل عن أمل إعادة تزويجه مستقبلًا، والاستمتاع برؤية أبنائه.

استعادت «أمل» نشاطها فجأة؛ مدفوعة بفورة من أدرينالين السعادة الذي حظيت به، وكأنها لم تكن مريضة في يوم من الأيام -رغم ما تركه المرض من أثار واضحة في ملامحها- وهو ما أعطى أسرتها أملًا واهيًا في إمكانية شفائها، قبل أن يفاجئوا بها تستيقظ في يوم من الأيام وقد ارتفعت درجة حرارتها كثيرًا، حتى أنها كادت أن تتجاوز الحادية والأربعين، وراحت ترتجف من الحُمى .

وهي الحالة التي فوجئ بها «فارس» حينما مر لاصطحابها -كعادته- صباحًا، حملها بين ذراعيه مثل طفلة صغيرة، وضعها في سيارته وسارع بها رفقة والِديها إلى المستشفى، حيث مكثت هناك بضع ساعات في قسم الطوارئ، عمل الأطباء خلالها على التحكم في درجة الحرارة، وما أصعب ما كانت مهمتهم؛ بعدما استهلك المرض مناعة جسدها، إلى أن وصل بها إلى الدرجة «صفر». وما أن تم السيطرة عليها حتى طُلب منها القدوم في وقت لاحق لإجراء المزيد من الفحوصات والتحاليل.

وفي صبيحة اليوم التالي، ذهب معها برفقة والِدتُها لإجراء الفحوصات والتحاليل المطلوبة، قبل أن يتوجها بنتائجها إلى طبيبتها المعالجة في مركز الأورام، وهناك كانت صدمته؛ حينما أخبرته الطبيبة أنهم وصلوا في علاجها إلى طريق مسدودة، وأن الطب أصبح يقف عاجزًا عند هذه المرحلة، قال فزعًا: «ماذا تعني؟!»، «اطلب لها العون من الله»، أجابت، وحذرته من انتكاس حالتها في أي وقت. صرخ في وجهها؛ يرفض ما تقول، غير مصدق إياه، قبل أن يعود ويعتذر منها.

خرج من عند الطبيبة مصدومًا، ولم يكن من العسير عليها قراءة تعابير وجهه، وإدراك ما قيل له، «هذا ما حاولت أن أجنبك إياه»، قالت. «قسوته لا تعادل ذرة من قسوة ابتعادي عنك»، أجاب.

قرر ضرب الحائط بكل استعدادات الزواج، وأصر على التعجيل بإجراءاته، ما أن تستعيد عافيتها. في الوقت الذي بدت هي فيه مترددة، ولكنها سرعان ما استجابت له، متخلية عن ترددها، مستعيدة تلك الابتسامة الساحرة التي خلبت لبه.

وقررا اقتصار الدعوة على أفراد أسرتيهما، ولم يكن يعرقل مخططاتهما سوى نوبات الحُمى التي راحت تضرب جسدها الهزيل مرتين أو ثلاثة في كل أسبوع.

***

اتصل بها في يوم من الأيام لكنها لم تُجب على اتصاله، عاود الاتصال دون أن يتلقى أي رد؛ راح الخوف يعتصر قلبه؛ وقرر الاتصال بشقيقتها حتى يسكن نفسه القلقة، لكنها- أيضًا- لم تُجب ؛ فاتصل ثانية وثالثة إلى أن فتح الخط، لكن أحدًا لم يتحدث، كل ما سمعه هو صوت نحيب وبكاء، راح يصرخ كالمجنون؛ على أمل أن يستمع أحدهم لنداءه ويجيب، ولكن «لا حياة لمن تنادي» عاود تكرار الاتصال ولكن هذه المرة بوالديها، لكن أي منهما لم يرد.

سارع لاستقلال سيارته بأقصى سرعة، وهو يرتدي المنامة، دون أن ينتبه لتغير

ملابسه، متجاوزًا كل السيارات التي اعترضت طريقه، وقاطعًا إشارة المرور الحمراء التي صادفها، غير عابئ بقوانين المرور، أو بسيارة الشرطة التي راحت تطارده، قبل أن يتمكن من الفرار منها.

ولم يكد يصف السيارة أمام باب مسكنها حتى أخبره حارس العقار أن سيارة الإسعاف قد حملتها قبل نصف ساعة، ودله على اسم المستشفى؛ فانطلق من فوره، دون أن يتوقف عن محاولاته للاتصال بأفراد أسرتها فردًا فردًا، لكن أحدًا لم يُجب.

لا يعلم كيف وصل إلى المستشفى وصف سيارته، كان يقود كالمجنون، غير مكترث لحياته، حتى أنه كاد أن يتسبب في وقوع ثلاث حوادث أثناء الطريق، ولم يكلف نفسه عناء الاعتذار لهؤلاء الذين كاد أن يصطدم بهم، وهو ما جعله عرضة للملاحقة من أبواق السيارات، التي راحت تصب لعناتها عليه نيابة عن أصحابها.

وفي قسم الاستقبال وجهوه إلى غرفة العناية المشددة؛ فاتجه إلى المصعد، وراح يضغط على لوحة المفاتيح بشكل متتابع، دون أن يتوقف، لكنه لم يُطق الانتظار؛ فولاه ظهره متجهًا نحو السلم، وراح ينهب درجاته صعودًا، فكان صوت ارتطام أقدامه مع الدرجات يسبقه، ويُحدث صدى جليًا، أجبر الجميع على إفساح الطريق أمامه.

وما أن استوى في الطابق الرابع حتى راح يجوب الممرات مهرولًا، واحد يلفظه، والآخر يتلقفه، إلى أن شاهد والديها في نهاية أحدها، راحت سرعته تخف تدريجيًا وهو يتقدم نحوهم، وكأنه استنفذ آخر ما تبقى في جسده من قوة، كان يتقدم وهو يخشى الوصول إليهما وسماع خبر قد يذبحه.

وما أن لحق بهما حتى شاهدها من النافذة الزجاجية في الحائط ممددة على السرير، غائبة عن الوعي، موصولة بالأجهزة، وعندها تمكن منه إجهاده، وخارت قواه، حينما عجزت قدماه عن حمله؛ راح عوده ينكسر، وأخذ جسده في التهاوي، إلى أن ارتطمت ركبتاه بالأرض، ثقل رأسه ومال للأمام تدريجيًا؛ إلى أن التصقت جبهته بالأرض، وصار يأخذ وضعية السجود في الصلاة؛ لتستقبله عندها رائحة المواد المطهرة النافذة، المستخدمة في تطهير الأرضيات.

انخرط في البكاء وعلا نحيبه مثل طفل صغير؛ قبل أن ينحني عليه والِداها، ويساعداه على النهوض. احتضناه، وانخرط ثلاثتهم في عزف أنشودة حزينة على نشيج البكاء.

***

انقضت ثمانية وأربعون ساعة وهو متسمر في مكانه أمام غرفة العناية المشددة، يرفض التحرك من مكانه، معتذرًا عن أي مقترح بالمغادرة إلى المنزل، والحصول على قدر ولو بسيط من الراحة، أو حتى أخذ حمام سريع والعودة بعد تغيير ملابسه، وبضغوط المحيطين به قَبِل ازدراد لقيمات قليلة من الطعام، ساعدته على صلب عوده.

كانت «أسماء» أول من فكر في الاتصال به وطلب مساعدته؛ بعدما رُفضت محاولاته في الدخول والبقاء إلى جوارها في غرفة العناية، لم تتأخر واستطاعت الحصول له على إذن بالدخول والاطمئنان عليها بضع مرات خلال ساعات النهار والليل، لكنه كان يخرق الإذن ويبقى إلى جوارها، ولم يكن يغادر سوى في موعد التفتيش الصباحي من مدير المستشفى.

كان يقضي وقته جالسًا إلى جوارها، يمسك مصحفًا صغيرًا ويتلو آيات القرآن الكريم، وهو يبتهل إلى الله بالدعاء؛ أن يَمُن عليها بنعمة الشفاء.

حمل يديها في راحتيه وراح يلثمها وهو يتحدث إليها، وصوت نهنهاته يتصاعد: «عليك أن تُفيقي، لن أسمح لك بالرحيل دون أن نتزوج»، وأقسم عليها أنه سيحضر المأذون لعقد القران ما أن تُفيق، شعر فجأة بأصابعها تتحرك في يديه، كانت تفتح عينيها ببطء شديد قبل أن تعيد إغلاقهما. ازداد انهمار دموعه، وقف على قدميه واقترب منها وراح يمسد وجهها بيديه، قبل أن يطبع قبلة طويلة على جبينها.

***

اتصل بوالديها وطلب منهم الحضور الفوري إلى المستشفى، وكذلك فعل مع والديه، فزعوا من مطلبه؛ معتقدين أن هناك مكروهًا قد أصابها، لكنه سارع إلى طمأنتهم، وضحك قائلًا: «لا تنزعجوا، ستتعرفون على السبب ما أن تصلوا». وهو ما زرع في نفوسهم شيء من الطمئنينة.

سارعوا بالتحرك إلى المستشفى، وما أن دلفوا إلى غرفة العناية حتى استقبلهم رائحة عطرية نفاذة، لم يكن عليهم التفكير طويلًا لمعرفة مصدرها؛ كانت الأرض مغطاة بالكامل بذهور التوليب الحمراء، في حين تدلي من السقف -وعلى الحوائط- شرائط وأوراق ملونة، ناهيك عن الكثير من البلالين مختلفة الألوان والأحجام، في حين كانت أمل -في مكانها- ممددة على السرير، موصولة بالكثير من الخراطيم والأسلاك التي تربطها بالأجهزة، لكنها كانت ترتدي ثوب زفاف أبيض اللون.

كانت أسماء قد ساعدتها على ارتدائه، كما ساعدتها في الاعتناء بمساحيق الوجه، التي نجحت في إخفاء القليل من أثار المرض الظاهر عليها، وإن لم تستطع التخلص من قناع الأكسجين.

بينما كان فارس في كامل أناقته، حليق الذقن مصفف الشعر، يرتدي حُلة سوداء بعد أن تمكن من تغيير ملابسه، والحصول على حمام بارد في استراحة الأطباء.

- «ما الذي يحدث هنا؟!» قالت والدته.

- «سنتزوج الآن»، أجاب عليها.

سيطرت عليهم حالة من الدهشة، وقبل أن يتمكنوا من تدارك ما يحدث، أو الاعتراض تدخل رجل أربعيني، يحمل دفترًا كبير الحجم تحت إبطه، وبلغة عربية صحيحة، أجاد تلحين حروفها قال: «ومن وكيل العروس؟» وسارع فارس للإجابة: «والِدُها»، وجذبه من يده نحوه.

-«إذا ضع يدك في يده أيها العريس»، قال.

وعلى الفور شرع الرجل في ترديد تراتيل الزواج، بعد الانتهاء من تسجيل البيانات في دفتره، إلى أن ختمها بكلمتي: «بالرفاء والبنين للعروسين».

انطلق فجأة صفير أحد الأجهزة الطبية؛ وسادت حالة من الهرج؛ قام الأطباء على أثرها بإخراج الجميع خارج الغرفة، ولم يبق منهم سوى «فارس»، الذي رفض الخروج. وعلى الفور عمل الأطباء الثلاثة مثل خلية النحل، كل منهم يعلم مهمته دون توجيه من الآخر، اثنان منهم توجها نحو الأجهزة الطبية وعمدا إلى إعادة ضبطها، في حين طلب ثالثهم جهاز الإنعاش بالصعقات الكهربائية، وما أن تناوله من إحدى الممرضات حتى شرع في إصدار توجيهاته إليها: «مائة فولت»، ويضع الطارتين فوق صدر «أمل» ويصعقها؛ ومعها ينتفض جسدها؛ نتيجة الانقباض اللحظي في الخلايا العصبية؛ فيتوقف الصفير لثانية أو اثنتين، وتظهر بعض العلامات على إحدى الشاشات، كدليل على عودة النبض ، قبل أن يعود الصفر وتتوقف الإشارة من جديد، «مائة وخمسون فولت»، ويكرر نفس الخطوات، «مائتان»، «مائتان وخمسون». وأخيرًا فقد الأمل في إمكانية إنعاش قلبها، فتوقف ونظر صوب «فارس» قائلًا: «البقاء لله وحده». راح يصرخ كالمجنون «لا، لا، لا يمكن أن تموت». وهوى عليها بجسده، احتضنها بين ذراعيه وراح يبكي.

هي الأخرى

عام كامل مر على رحيلها، ثلاثمائة خمسة وستون يومًا بالتمام والكمال، وعلى النقيض مما توقعه الجميع، أنه لن يتمكن من المضي قدمًا في حياته، إلا أنه تعافى سريعًا من جراحه، ولم يكن السبب كما أخبروه محاولين مواساته؛ «نحن بشر؛ ومن هبات الخالق إلينا نعمة النسيان»، لكنه لم يكن النسيان؛ السبب ببساطة، أنه لم يشعر للحظة أنها قد فارقت حياته، ومع أنها رحلت بجسدها إلا أنها لم ترحل عنه بروحها؛ كان يشعر بها دائمًا تحلق في محيطه.

وكلما استبعد به الشوق والحنين إليها، أخرج مفكرة صغيرة، وراح يفضفض فيها بكل ما يحمله بين جنباته من أشواق.

ورغم مرور كل هذه المدة على رحيلها، إلا أنه لم يمتلك الشجاعة اللازمة لزيارة قبرها، كانت المرة الأولى والوحيدة له حينما وُري جسدها الثرى؛ كان هناك دائمًا شيء ما يدفعه للتراجع عن الفكرة وإلغائها في اللحظة الأخيرة ، ولكن ما هو السبب؟! لا يدري، كل ما يعرفه أن الخوف يستبد به، ويدفعه للتراجع، ورغم محاولاته للتغلب عليها إلا أنه فشل.

لكنه لم يكن ليستسلم لمخاوفه اليوم، كان لديه سبب قوي يحفزه للتغلب عليها، إنها الذكرى الأولى لزواجهما وللرحيل أيضًا، تلك اللحظة التي بلغت فيها سعادته وتعاسته ذروتها؛ ليصبح حائرًا، هل يحتفل به، ويقيم الأفراح؟! أم يعلن الحداد ويرفع رايات الحزن؟! كل ما يعرفه أنه يتوجب عليه أن يقضيه برفقتها؛ لذا حصل على اليوم كإجازة عارضة من العمل.

وهي الإجازة الوحيدة التي حصل عليها خلال العام المنصرم، بخلاف إجازته الروتينية، والتي اعتاد أصدقاؤه على اقتسامها بينهم وقضائها برفقته؛ لكيلا يُترك وحيدًا. لكنه قرر أن يقضي اليوم منفردًا برفقتها، بعيدًا عن أعين الجميع.

ارتداي نفس حُلة العُرس التي ارتداها يوم زواجهما، وإن تخلص من ربطة العنق، وحرص على اقتناء باقة من زهور التوليب الحمراء، التي طالما أحبتها، وراح يتقدم داخل المقابر بين القبور، وهو يستشعر جلال الموقف، بعد أن أصبح بين شقي رحى، رهبة الموت، ورهبة اللقاء. مع أن كلاهما في عالمين مختلفين، وهو لا يعلم كيف سيكون وقع اللقاء عليه؟! وإن كانت هي أفضل حالًا؛ بإمكانها أن تراه وتسمعه، على النقيض منه.

تراءى له اسمها من بعيد، «أمل فارس». وكان قد أصر أن يحمل شاهد القبر اسميهما معًا. وكلما تقلصت المسافة كلما ازدادت رهبته، وحاول جاهدًا أن يسيطر على دموعه، التي غلبته وفاضت بغزارة، وراحت تتسلل من بين جفونه؛ إلى أن حجبت عنه الرؤية.

وما أن صار أمام القبر حتى تحدث تحدث إليها قائلًا:

«حبيبتي لا أعلم كيف أواصل الحياة من دونك؟! بعد أن فقد العالم بريقه بالنسبة لي، ورغم محاولتي للتماسك أمام الجميع؛ حتى أتغلب على نظرات الشفقة في عيونهم، إلا أنني أشعر بفراغ داخلي، يمتد بحجم هذا الكون.

سأتوقف عن البكاء؛ محافظًا على وعدي لك ألا أحزن. أحضرت لك زهور التوليب الحمراء؛ أعلم أنك تحبينها كثيرًا».

صمت وهو يتحسس جيب حُلته باحثًا عن منديل يمسح به دموعه، لكنه فوجئ بوجود شيء ما تحت يده، يبدو أنها ورقة، وبدافع الفضول أخرجها، وما أن هم بفحصها حتى سمع وقع خطوات تأتي من خلفه، التفت ولأشد ما كانت دهشته؛ كانت الدكتورة أسماء.

***

اعتادت أسماء أن تتصل به من وقت لآخر؛ بحجة الاطمئنان عليه والوقوف على أخباره، لكن كلاهما كان يعلم السبب الحقيقي، الإجابة وبساطة أنها تحبه، ومع أنه لم يكن يبادلها نفس المشاعر، إلا أنها ورغم محاولاتها للابتعاد عنه فشلت، وعلى النقيض أصبحت، كلما جد في الابتعاد عنها، كلما ازدادت هي تمسكًا به.

- «ماذا تفعلين هنا؟!» سأل مندهشًا.

- «ما الذي تفعله أنت هنا؟! ألم تكن ترفض فكرة زيارتها، ما الذي تغير؟!»

- «لا شيء، لكن لم يكن باستطاعتي تمضية هذا اليوم -تحديدًا- بعيدًا عنها؛ لذا قررت التغلب على مخاوفي والقدوم، لكن، ما سبب قدومك أنت؟!»

- «هناك أمر ما أردت إخبارها به». أجابت.

- سأل مستغربًا: «وما هو هذا الشيء؟!»

- «يُمكنك القول إنه وعد قطعته لها، ولم أستطع الوفاء به».

- «أي وعد؟!»

- «أن أساعدك على تجاوز محنتك ومواصلة حياتك...»، وقبل أن تشرع في إكمال جملتها قاطعها؛ مغيرًا مجرى الحديث، رافعًا كفيه نحو الأعلى: «لنقرأ لها الفاتحة».

كان يعلم جيدًا ما ستخبره به، لا بد وأنها ستلقي على مسامعه ذات النصائح التي اعتاد أن يسمعها منها في كل مرة يلتقيها أو اتصلت به عبر الهاتف، عن ضرورة المضي قدمًا في حياته، وتلك العبارات الأخرى -الكثيرة- التي بات يتجنب لأجلها الأصدقاء والمعارف؛ من كثرة ترديدها على أُذنيه.

أغمض عينيه ورفع كفيه نحو الأعلى، بعد أن سحب نفسًا عميقًا من الهواء، راح يزفره في هدوءٍ وترو، وما أن انتهى من قراءة الفاتحة وفتح عينيه حتى انتبه للورقة التي في يده، وكأنه تذكرها فجأة، كانت مغلفًا صغيرًا، ولم يكن المغلف هو ما جذب انتباهه تحديدًا، بل هاتين الكلمتين اللتين خطتا على ظهره بخط واضح، يعرفه جيدًا «حبيبي فارس»، إنه خطها، لا يمكن أن يتوه عنه.

كان الأمر مفاجأة له، بدا حائرًا ومترددًا في نفس الوقت؛ فمن أين جاء؟! وكيف وصل إلى جيب حُلته؟! متى كتبته؟! وكيف لم ينتبه إليه من قبل؟! راح جسده يتنفض من هول المفاجأة السارة؛ ها هو يكتشف أن قصتهما لم تنته بعد، هناك أمر أخير تود إخباره به؛ لذا أرسلت له ذلك الخطاب.

«لا بد وأنها تعلم ما آل إليه حالي؛ وقررت أن تواسيني بتلك الكلمات»، قال لنفسه، فتحه ببطء، وبأنامل مرتعشة أخرج ورقة مطوية، نشرها في يديه وراح يقرؤها بصوتٍ هامس.

«حبيبي، حينما تقرأ هذه الكلمات لن أكون إلى جوارك، من المؤكد أنني سأكون قد فارقت الحياة، لا أدري متى ستكتشف رسالتي إليك؟ بعد أسبوع، شهر، عام، وربما تكتشفها بعد عدة أعوام، ومن يدري ربما تضيع ولا تقع بين يديك مطلقًا. لكن إن قدر وقرأتها فأعلم أنني أحببتك، ولم أحب سواك، شكرًا لك على تلك السعادة المفرطة التي منحتني إياها، لكن عليك أن تواصل حياتك، عدني بذلك، سيكون عليك أن تتزوج، تلك هي وصيتي إليك، حقق ما حلمنا به سويًا، هذا قدرك، واعلم أنني لن أكون سعيدة إن أنت لبست ثوب الرهبنة؛ واعتزلت النساء. أسماء تُحبك كثيرًا، قرأت ذلك في وجهها ذلك اليوم في المستشفى حينما التقيتك بعد سنوات

من فراقنا، وتأكدت منه حينما منحتك حرية الانفصال عنها، وازداد يقيني به من مواقفها النبيلة في آخر أيامي في الحياة؛ ستكون زوجة مثالية لك؛ عليك أن تمنحها فرصة للدخول إلى حياتك. لا تندهش لكلامي، سبق وفاتحتها في الأمر، ستنتظرك، أنا واثقة من ذلك، ورجائي منك ألا تُطيل فترة انتظارها. ما أن تنتهي هذه الحياة سأكون في انتظارك لأفتح لك أبواب الجنة، لننهل من نعيم الحب ما حُرمنا منه في هذه الحياة.

إلى لقاء يا أعز الأحباب

زوجتك أمل»

وما أن انتهى من قراءة الخطاب حتى انهار، وسقط فوق قبرها وراح يبكي بحرقة، وسط حيرة أسماء، التي اندفعت نحوه، وحاولت بكل جهدها أن تمسك به من تحت إبطه وتساعده على النهوض، لكنها عجزت مع قوة بنيته الجسدية، واستسلمت لفشلها سريعًا حينما رأت يديه تمتد نحوها بالخطاب، أمسكت به وراحت تلقي عليه نظرة سريعة خاطفة.

لم يكن محتواه جديدًا عليها، رغم أنها لم تعلم بوجوده من قبل؛ فحينما كانت تزين «أمل» بمساحيق التجميل يوم عقد قرانها به، واجهتها بحبها له وعدم ممانعتها لذلك، كانت تعلم أنها ستفارق الحياة قريبًا.

عبثت «أسماء» في حقيبتها وأخرجت خاتمًا، ما أن رآه «فارس» حتى دُهش، لقد بحث عنه كثيرًا، وسأل عنه الجميع، وعاتب نفسه، كيف لم يسألها من قبل، وكان أول سؤال تبادر إلى ذهنه، وقرأته في عينه، كيف وصل إليك؟! ولم تمنحه فرصة للسؤال وقالت :

- «منحتني إياه في ذلك اليوم، وأصرت عَلَيَّ للاحتفاظ به، رغم رفضي»، قائلة: «أظهريه في الوقت المناسب، وها أنا ذا أقدمه لك؛ بعد أن تأكدت من عدم قدرتك على تجاوزها»، ومدت يدها نحوه بالخاتم، لكنه رد يدها قائلًا: - «يمكنك الاحتفاظ به، لكن سيكون عليك إمهالي المزيد من الوقت، وإن كنت موافقة...»، ولم تتركه يكمل جملته، وقالت: «نعم موافقة، ويمكنني إمهالك العمر كله».

فاصِل ونواصِل

مَرَّ عليَّ اليوم مُمِلًّا بطيئًا، رغم كونه يومًا صيفيًا معتدلًا، وإن اشتدَّت حرارة الشمس بعض الشيء مع انتصاف ساعة الظهيرة، لكنّ حدّتها لم تلبث أن انكسرت لاحقًا، ومع ذلك لم أتمكن من الاستمتاع به؛ بعد أن عكّر صفاءه داخلي تلك الغيوم التي أثقلت صدري، بعد أن كُتِبَ عليّ أنْ أحيا غريبًا. ما إن أصبحتُ قادرًا على التجوال وحيدًا بعيدًا عن المنزل، حتى حملتُ حقيبة ملابسي فوق كتفي، وخرجتُ مُطارِدًا رزقي.

مع أنها لم تكن تجربتي الأولى في السّفر، إلا أنها تختلف كثيرًا هذه المرّة، في الماضي لم يكن ابتعادي عن المنزل يدوم -في أكثر المرّات- عن الشهر الواحد؛ أعمل هنا وهناك، لكن يمكنني العودة متى شئت، في أيّ وقت يمكنني الحصول على إجازة، أو حتى ترك العمل والاستقالة، أستقلّ أقرب قطار أو حافلة تحملني إلى المنزل، أمّا هذه المرّة لا يمكنني ذلك؛ فسفري إلى خارج أرض الوطن، وبالتالي لا يمكنني العودة متى أردت؟ بالإضافة إلى تلك الأموال التي اقترضتُها؛ لأدفعها مقابل تأشيرة السّفر.

انطلقَتْ الطائرة مع دقّات الساعة العاشرة مساءً، مِن مطار النزهة في الإسكندرية، ساعة أو أكثر بقليل مِن التحليق بين السماء والأرض، وسط ظلام دامس، لا يشقّ ظلمته سوى تلك الأضواء الخافتة، المثبّتة على جناحَيْ الطائرة، والتي ظهر لي أحدها مِن نافذة باب الطوارئ الذي تصادف جلوسي إلى جواره. ولتتصاغر القرى والمدن، ولا يبقى منها سوى تلك الأضواء المتناثرة بشكلٍ عشوائيٍّ على شكل حبّات مِن اللؤلؤ انفرط عقدها، قبل أن تحطّ رحالها أخيرًا في مطار الملكة علياء الدولي في عمّان.

غادر جميع ركاب الطائرة، بعد إنهاء إجراءاتهم بسهولة ويُسر، في حين لم يتمكّن ثلاثة عشر راكبًا مِن إنهائها -كنتُ واحدًا منهم- كان الرّابط الذي يجمع بيننا هو لقمة العيش التي قدِمْنا خلفها، وأنّ تلك هي المرّة الأولى التي نغترب فيها إلى هذا البلد، لا نعرف بالضّبط سبب هذا التأخير؛ بعد أن تضارَبَت أقاويل صغار الموظفين داخل المطار، الذين استطعنا التواصُل معهم، كان الجميع من رجال الشرطة.

بدا لباسهم لي غريبًا، عن زي الشرطة المصرية، بلونيه، الأبيض صيفًا، والأسود شتاء، قميص من اللون الأزرق الفاتح، وبنطال أزرق داكن اللون. كما كانت رتبهم العسكرية مختلفة، سواء في شكل النجمة، أو التاج بدلًا من النسر، وأغلبهم تنوعت

رتبته بين شريطين أو ثلاثة على الزراع، كما أن جميعهم يرتدي «بريه» على الرأس، أشبه ما يكون بقلنسوة الطيارين العسكريين، وليس «الكاب»، كما هو الحال في مصر، لكنّ عيني سـرعان ما بدأت تعتاده.

أخبرني أحدهم عندما حاولتُ استجلاء حقيقة الموقف أنّ هناك عطلًا في أجهزة الكمبيوتر، لكن أيكون ذلك العطل علينا نحن فقط؟ ولماذا لم يمنع هذا العطل باقي ركاب الرحلة التي قدِمنا فيها من المغادرة؟ وكيف يتمكّن القادمون عبْر الرِّحلات التي تحطّ رحالها بيْنَ الحين والآخر مِن إنهاء إجراءتهم؟ لم يبْدُ الأمر مقنعًا بالنسبة لي، لكنّ الشـرطيّ لم يمنحني الفرصة للاعتراض؛ بعد أن طلب منّي بلهجة حازمة أن أذهب وأنتظر بعيدًا مع البقيّة.

في حين ادّعى شـرطي آخر أنّ سبب التأخير هو الرغبة في التأكُّد مِن صحّة عقود العمل التي قدِمنا بها، وإجابة ثالثة، ورابعة، لكن أيًا منها لم يستطع طمأنة نفوسنا القلقة.

أفقد الإحساس بالوقت الذي يمرّ أبطأ من ذي قبْل، أنظر بشكل تلقائيٍّ إلى ساعتي التي يزدان بها معصم يدي الأيسـر، لكنّني لا أجدها. أين ترَاها قد ذهَبَت؟ لم تفارق يدي منذ أهداها لي خالي بعد نجاحي في الشهادة الإعدادية؛ كمكافأة منه على تفوُّقي، والتحاقي بالثانوية العامّة، وبدأ الجميع يسبق اسمي إمّا بلقب دكتور، أو مهندس، لكنّني لم أحقّق أماني أيّ منهم؛ والتحقتُ بكلية التجارة.

أبحثُ عنها، أتحسَّس ملابسـي، لكنني سـرعان ما أتذكّر، أنني قد تخلّيتُ عنها، بالرغم ممّا كانت تمثِّلهُ لي من قيمة معنوية؛ آملًا أن أستبدلها بأخرى حديثة تتناسب مع الحياة الجديدة التي أُنشدها، ومن يدري، ربما تكون هذه المرة تحمل علامة ماركة معروفة، لكنني ما أزال افتقدها وأفقد معها الإحساس بالوقت، وسـرعان ما تأتيني الإجابة عبْر مكبِّرات الصوت، التي يتردَّد صداها في القاعة التي تواجَدْنا بها:

«يُعلِن مطار الملكة علياء الدّولي وصول رحلة السّاعة الثانية عشـرة وخمس دقائق بعد منتصف الليل، والقادمة مِن أمستردام، على طيران الشـركة الهولنديّة».

إذن هي الثانية عشرة وخمس دقائق، أي أننا قد بدأنا ميلاد يوم جديد، عمره خمس دقائق فقط.

***

يستمرُّ الوقت في التقدُّم بطيئًا، دون أن يطرأ على حالنا أيّ تغيُّر يذكر، ولا نملك شيئًا سوى الانتظار، انتظار قاتل؛ تتلاعب خلاله الظنون برأسي، وتذهب بها إلى مذاهب شتّى، تمخَّض عنها مجموعة من الأسئلة التي أرّقني عجزي عن الإجابة عنها، هل يمكن أن يتم إعادتنا إلى حيث أتينا؟ ولكن كيف سأتصرف إن حدث ذلك؟ أوّل ما جال بخاطري، كيف سأتمكّن مِن سداد الأموال التي أقترضتها قبل سفري؟

لم تصْبُ نفسي يومًا للسفر والترحال، لكنني اخترتها مكرهًا؛ فالغربة تسرق سنوات العمر دون أن نشعر بها، وكم هو قصير عمر الإنسان ليتمكّن مِن تحقيق كلّ أحلامه؟ متوسّط أعمارنا لا يتجاوز الستين، نقضي ثلثها في الموت الأصغر، وثلثًا آخر تلتهمهُ فترة الطفولة وبدايات الصّبا، وثلثًا أخيرًا تسلب معظمه متطلَّبات الحياة.

تلاعَبَت الفكرة برأسي حتى سيطَرَت عليه كلِّيًا، فتملّكتني؛ قرّرتُ ألّا أضيع ثلث عمري نائمًا، خاصّة بعد أن انقضى ثلث الطفولة دون أن أنتبه له، اختزلتُ ساعات نومي إلى ستّ ثم خَمْس فأربع ساعات يوميًّا، وأحيانًا ثلاث، واستنفدتُ هذه الساعات المدّخرة في طلب العلم، وصقل مهاراتي.

وما تكاد همّتي تضعف حتى أمنّيها بغدٍ قريبٍ يستجيبُ فيه القَدَر لأحلامي، أقنِع نفسي وأمنّيها، أنّ كلّ دقيقة أقدّمها لحلمي عَلى حساب باقي متطلّبات حياتي، ما هي إلا قربان لطموحي، خطوة تدنو بي نحو غدي، لم أكترث لانتقادات المحيطين بي، والتي تدعوني أنْ أرأف بحالي، وأتريَّث في اجتهادي.

كنتُ أتخيّل نفسي في يوم تخرّجي من الجامعة، والمستقبل يفتح ذراعيه لاحتضاني، كلّ ما كان عليّ حتى ذلك الوقت هو أن أبذل كلّ ما هو غالٍ وثمين، لإنجاز ما أطمع فيه، سرعان ما انقَضَت سنوات الجامعة الأربع، ورغم تمزُّقي بين الجامعة من ناحية، والتحاقي بغير عمل حتى أستطيع الإنفاق على نفسي بعيدًا عن والدي، إلّا أنني لم أشعر بالإرهاق أو الملل؛ كان بداخلي حلمٌ، يساندهُ حافز، يدعمهُ أمل.

حصلتُ على تقدير امتياز طوال سنواتي الجامعيّة الأربع، لأتخرّج الأوّل على أقراني، بالإضافة لكوني الرابع على مستوى الجامعة، حملتُ شهادة تخرُّجي التي ترصِّعها درجاتي صوْب عميد الكليّة؛ أطالب بأحقيّتي في التعيين معيدًا في الكليّة، لكنه اعتذر لي، كما اعتذر لي قبله رئيس القسم، ورئيس الجامعة مِن بعده، والحجّة أنّ الكلية ليست في حاجة إلى زيادة في كادر الأساتذة، ممّا استدعاهم لإيقاف التعيينات لمدّة ثلاث سنوات.

تقدَّمتُ بعشـرات الشكاوى ومئات الالتماسات، لم أترك مسؤولًا إلا وأرسلتُ له برقيّة، أو بريد يحمل شكواي المدعمة بشهادتي، إلى أنْ أخبرني إياها أحد موظفي شؤون الطلبة في الكلية: «المقعد الذي تحاول الحصول عليه في هيئة التدريس تمّ حجزه مسبقًا، لأحد أبناء الأساتذة».

وقفت مشدوهًا أمامه من المفاجأة، أنا الذي كنت أعتبر نفسي محظوظًا؛ لعدم وجود زملاء لي من أبناء الأساتذة، وإلا لتم محاباته في الدرجات على حساب تفوقي، ومع ذلك لم أسلم من الظلم، كيف يجهضن حقي في التعيين لأجل طالب بالكاد أنهى سنتهُ الجامعيّة الأولى؟ ولأجله تعطل التعيينات لثلاث سنوات متتالية.

لم أتلقَّ أيّ ردّ على شكواي، وكيف يمكنني أن أتلقى ذلك الردّ؟ إذا كان مَن أرسلتُ إليهم شكواي يعاقرون الجريمة نفسها التي ارتُكِبَت في حقّي، فكلّ شـيء في بلادي قابل للتوريث، وكأنّ قدري -رغم تفوّقي- أن أرث وظيفة والدي، كعامل، التي اتشرف بها وبه، لكنني لم أجتهد كل هذه السنوات، ومن خلفي أسرتي لأنحي شهادتي في النهاية، وأقبل بميراث مهنة أبي، وإلا فما جدوى التضحيات التي قدمتها، وساندتني فيها أسرتي؟! مضحية هي الأخرى بالكثير، وأقلها الأموال التي أنفقت على تعليمي، وكان يمكن أن تحدث الكثير من الفارق على مستوى معيشتنا، وفي النهاية تخبرني منظومة الفساد أنه ومهما حاولتُ تغيير واقعي بالاجتهاد لن أستطيع، لن أجد مَن يدعمني لاستعادة حقّي، وإن أردتُ الحصول على هذا الدّعم فعليّ شـراؤه، ولكن مِن أيْن لي بالثمن؟

وكل شيء في مصر أصبح قابل للبيع والشراء، بالمال تستطيع الحصول على أي شيء، الحسب والنسب، الجاه والسلطة، وأيضًا الوظيفة، وحينما نتحدث عن الوظيفة يكون المقابل المدفوع حسب نوعها، من حيث الدخل المادي وما تسبغه على صاحبها من سلطة، وفي مقدمتها الوظائف في السلطات الثلاث، جيش، شرطة، قضاء، يليها شركات البترول والكهرباء، ثم الاتصالات والمياه. وهكذا على حسب مقدرتك المالية تكون الوظيفة، التي تكون وجه السعد عليك أنت وذريتك من بعدك؛ حيث أنها قابلة للتوريث.

وأخيرًا قرّرتُ الاستسلام للأمر الواقع، انتهت بي الحال للعمل على ماكينة تغليف، في أحد مصانع تعبئة الشاي، فشلتُ في العثور على نقطة للانطلاق مجدَّدًا بحياتي على خطِّ أحلامي، أبى الواقع أن يرضخ لي؛ بعد أن عاندتني الظروف؛ فلا أنا تمكّنتُ مِن الحصول على العمل المناسب، ولا أنا استطعتُ التعاطي مع الواقع، والتخلّي عن طموحي.

وهكذا تعثَّرْتُ في أحلامي، وبدأ الوقت يفقد قيمته بالنسبة لي، وتسلّل إليّ الإحساس بالضياع حتى تملّكني. وها هو ذلك الصوت الأنثويّ الرقيق ينطلق مرةً أخرى، قاطعًا عليّ ذكريات الماضي، الحاضرة دومًا معي: «يعلن مطار الملكة علياء الدّولي وصول رحلة الساعة الواحدة مِن صباح السّبت، القادمة مِن جدّة، على طيران الشركة الملكيّة الأردنيّة».

«يعلن مطار الملكة علياء الدّولي عن وصول رحلة الساعة الواحدة مِن صباح السّبت، القادمة مِن آربيل، على طيران الشركة الملكيّة الأردنيّة».

***

لم أكُن يومًا شخصًا انهزاميًّا يستسلم بسهولة، لكنني صرتُ كذلك نتيجة لفشلي المستمرّ، كثيرة هي المرّات التي سقطتُ فيها وعاودتُ النهوض، ولكن إلى متى يمكنني السقوط ومعاودة النهوض مجدّدًا؟! كم مِن مرّة استيقظتُ فيها باكرًا مع ساعات الصُّبح الأولى؟ أحمل حقيبة أوراقي الصغيرة، أجوبُ أرجاء المدينة والمدن المجاورة، وكنت على استعداد أن أذهب إلى آخر الدنيا؛ على أمل أن أوفّق في الحصول على وظيفة تتناسب مع شهادتي، كأنّ الأمر أشبه ما يكون بروتين أسبوعي، أقوم به مرّة أو اثنتين في كلّ أسبوع.

لم تعُد الأعمال التي كنتُ أمتهنها إلى جانب الدراسة كعامل أو بائع تتناسب معي بعد الآن، كنت في كلّ مرّة أخرج أول النهار محملًا بالأمل ولا أعود آخره إلا بخفّي حنين، ما إن يتنامى إلى مسامعي مجرّد خبر توظيف في مكانٍ ما حتى أذهب من فوري، وأقدّم أوراقي، أنتظر على أمل أن يحدث المستحيل، لكنه لم يحدث أبدًا، مئات المرّات التي قدّمتُ فيها أوراقي، وعبارة واحدة حفظتها عن ظهر قلب، مِن كثرة ترديدها على مسامعي: «قُم بتعبئة نموذج التقديم، واترك نسخة من أوراقك ورقم هاتفك؛ سنعاود الاتصال بِك»، لكن ذلك الاتصال لم يأت مطلقًا.

ومع فشلي المستمرّ قرّرتُ تنحية أحلامي جانبًا -رغمًا عنّي- وأجبرتُ نفسي على معايشة الواقع، والقبول مرغمًا بأوّل عمل يتوفّر لي، لكن لا يكاد يمرّ شهر أو اثنان حتى يطاردني طيْف أحلامي مِن جديد، ويغذّي وريد الأمل بداخلي، يدعم رغبتي في التمرُّد على الواقع؛ فأهمل عملي، وتنتهي الحال بتركي له في النهاية، وأبدأ دورة بحث جديدة تنتهي باستسلامي، وقبولي بأوّل عمل أصادفه، لكنّ بقايا أحلامي تنبعث من بين الرّماد مرّة أخرى، تنهش أفكاري وتطاردني؛ فتفتر همّتي وأستسلم للأمل مجدّدًا، وأبدأ رحلة بحثٍ جديدة.

كنت كـ»سـيزرت» بطل الأسطورة الإغريقيّة، الذي عاقبتهُ الآلهة؛ لتجرُّئه وتجرُّعه من كأس الخلود، بحمْل الحجارة إلى قمّة أحد الجبال، وما إن ينتهي مِن إيصالها إلى القمّة حتى تسقط، فيعاود حملها إلى الأعلى مِن جديد، لتسقط، فيعيش في عذابٍ أبديّ؛ فلا هو استمتع بخلوده، ولا هو تخلص من عذابه.

ولكن ما هي جريمتي حتى يقع على عاتقي كلّ هذا العذاب؟ أنا لم أنشد محرمًا، لم أطلب سوى أن أمتهن ما درست، وما الجريمة في أن أحلم بتخليد اسمي بجديد أضـيفه في مجال تخصُّصـي؟ ما العيب في ذلك؟ إنه خلود مشـروع لا ذنب فيه، ولكن كيف لمثلي أن يكسـر قوانين الآلهة التي تحكمنا؟

وها هو ذلك الصوت ينطلق مِن جديد، مخترقًا صوت السكون المهيمِن على المكان، وفارضًا هيبته على تلك الهمهمات المنبعثة من بعض أحاديث جانبيّة انخرط فيها بعضهم:

«يعلن مطار الملكة علياء الدّولي عن وصول رحلة الساعة الواحدة وأربعين دقيقة صباح السّبت، القادمة مِن إسطنبول، على طيران الشـركة التركيّة».

***

انقَضَت نحو ثلاث سنوات منذ تخرّجي مِن الجامعة، لم أخْطُ خلالها خطوةً واحدةً نحو غدي الذي حلمتُ به، لم أحصل على الماجستير الذي خطّطتُ ألّا يستهلِك أكثر مِن ثلاث سنوات مِن عمري، ولم أبدأ طريقي للحصول على الدكتوراه، التي كان مِن المفترض أنْ أكون قد بدأتُ أولى خطواتي في التحضـير لها، وِفق جدولي الزمنيّ الذي وضعتُهُ في الماضـي، لكنني لم أحسِب حسابًا لأمرٍ واحدٍ؛ الواقع، حتى أنني لم أجرؤ على خوض غِمار التجربة برمّتها؛ فما الجدوى مِنَ الحصول على شهادة أخرى لا تعدو أنْ تضـيف عائقًا جديدًا يفصلني عن واقعي الذي أعيشه.

هنا بدأت فكرة السّفر -الذي لم أحبِّذه يومًا- تراودني؛ على أمل أن يساعدني في إدراك بعض أحلامي، والهروب مِن الظروف الصعبة التي صـرعَتني بين شقّي رحاها، بعد أنْ أُجبرتُ على العيش بين عالمين كلاهما على النقيض مِن الآخر، أحلامي مِن جهة، وواقعي المرير مِن جهة أخرى.

ألحَّت عليّ الفكرة وبشدّة هذه المرّة؛ بعد أن أدركتُ أنْ لا نجاة لي إلا بِه، لكنه لم يكن أمرًا هيِّنًا، كان فرصة صعبة المنال، وبحَسب الدولة التي تسافر إليها، والوظيفة التي تنتظرك يكون المُقابل المادي الذي عليكَ أن تدفعهُ في المُقابل.

لم يكن أمامي مِن سبيل سوى الاقتراض، لكن مَن ذا الذي يمكنه أنْ يقرضني آلاف مِن الجنيهات لا أعلم متى يمكنني إعادتها ثانية؟

رأيتُ في عيني والدي إحساسهُ بالعجز؛ لعدم تمكُّنه مِن مساعدتي، آلمتني نظرة الانكسار في عينيه، وكيف يمكنه أنْ يقدِّم لي يد العون إنْ كان لا يمتلك سوى مرتّب تقاعده؟ لم يمتلك يومًا سوى وظيفته الحكوميّة في أحد مصانع الغزل والنسيج، والتي حاول عبثًا أنْ يستتر بها ويسترنا مِن غدر الأيام، ورغم بساطتها إلّا أنها ضمنَت لنا الحدّ الأدنى مِن الحياة الكريمة، كما إنها أنفَقَت عليّ وشقيقتَيْ حتى تخرّجنا مِن الجامعة، بالإضافة لامتلاكه للمنزل الذي يؤوينا، والذي ورثه بدوره من جدي بعد وفاته.

رغم بساطة أحوالنا المادية إلّا أنّ والدي أصر على إلحاقنا بالجامعة، كان له حلمٌ واحدٌ؛ وهو أن يحقِّق فينا بعض أحلامه التي لم يستطع تحقيقها، كانت أوضاعنا الماديّة في الماضي أكثر مِن جيدة، حينما كان الموظف الحكومي -مهما كانت درجته الوظيفية- في طليعة السلم الاجتماعي للطبقة المتوسطة، لكنها بدأت تسوء تدريجيًّا؛ مع تراجُع الأوضاع الماليّة للشركة التي يعمل بها والدي، في ظل التراجع المستمر للقطاع العام، إلى أنْ ساءت كليًا مع خروجه للمعاش المبكّر بعد خصخصة الشركة.

في البداية رفض والدي وزملاؤه الخروج المبكِّر للتقاعد، كان ما يزال في قمّة عطائه؛ هو بالكاد لم يجاوز الثامنة والأربعين من عمره، وكيف يمكن للآلاف الخمسة والثلاثين التي سيحصل عليها كمكافأة أن تعيل أسرتنا؟ خاصّة مع تدنّي راتب التقاعد، لكونه خرج مبكّرًا قبل السنّ القانوني «الستين».

أسابيع مِن التظاهُر المستمرّ، استعاد فيها والدي ناصريّته التي آمن بها وأيّدها في بداية شبابه، قبل أن يكفر بها بعد ذلك، لينتهى التظاهُر بالاعتصام المفتوح، لكنّ خصخصة الشركة كانت تتمُّ بالفعل، ولم يَنَل والدي ورفاقه سوى الإهانة في أقسام الشرطة وأروقة مباحث أمن الدولة.

لم تشفع له بطولته في حرب أكتوبر التي شارك فيها، أو صورته المعلقة فوق أحد جدران غرفة الجلوس بصحبة الرئيس السادات، وهو يقلدهُ نجمة سيناء؛ لأسرهِ أحد قادة الألوية الإسرائيلية المدرَّعة أثناء الحرب، لم يشفع له أيّ مِن ذلك، كما لم تشفع له سنوات عمله الكثيرة، لكنه مع ذلك لم يستسلم للضغوط التي رضخ لها معظم زملائه؛ وقبلوا بالتسوية، التي فرضت عليهم، في حين أصر هو على موقفه.

انتهت الحال باستمراره في وظيفته غير مكترث بجنسية مالك الشركة الجديد، ولكن لم تمرّ سوى أيام حتى عاد إلينا محمولًا على الأكتاف، بعد أن أصاب الشَّلل نصفه الأيمن، فأصبح قعيد الفراش، وما تزال بعض أثار تلك الانتكاسة بادية عليه إلى الآن، فهو لم يبرأ منها كليًّا؛ بعد أن خلفت عرج خفيف في قدمه اليمني، لكن كل ذلك لا يمكن أن يقارن بما أصاب روحه من تشوهات.

لم يتحدّث إلى أيٍّ منّا عما حدث معه؟ أخبرنا زملاؤه أنه سقط مغشيًا عليه أثناء لقاء مالك الشركة الجديد، الذي طلب لقاءه بالاسم، وبعد اجتماعهما على انفراد حدث له ما حدث، ليسيطر عليه حزنٌ عميقٌ لم يفارقه بعدها.

لم يعد يقصّ علينا ما علق في ذهنه مِن أحداث زمن النكسة والانكسار إلى أكتوبر والانتصار، ما عاد يستجيب لاستجداءاتنا ليعيد على مسامعنا ذلك الجزء الذي يفضّل روايته دائمًا -ولم نَمَلّ سماعَه رغم كثرة ترديدِه- وهو كيفيّة أسره لذلك القائد الإسرائيلي، وما عَرَضَهُ عليه مِن مغريات لقاء إطلاق سراحه، وكيف رفض هذه العروض جميعها، لدرجة أنّ ذلك القائد الأسير وصفهُ بالغبيّ الأحمق، لم أسمعه يردِّدها مطلقًا بعد ذلك.

ما الذي حدث لوالدي؟ لا أحد يعلم، وما الذي جعله يتغيّر لهذه الدرجة؟ ظلَّ الأمر محيِّرًا إلى أن سقط منه سهوًا في هذيان مرضِه، كان أحد مُلّاك الشركة المتعدِّدة الجنسيات وأحد أكبر المساهمين فيها، والتي سيطرت على الشركة التي يعمل فيها والدي، وبقيمة تفوق قيمتها، العقيد ياجوري، أسير والدي السابق، وما إن رآه أمامه حتى مادت الأرض به؛ و سقط مغشيًا عليه.

شعر أنّ ما قدّمه ورفاقه في الماضي من تضحيات لم يعُد ذا قيمة، ذهبت جميعها أدراج الرياح، وما عجز أن يحصل عليه العقيد بالحرب حصل عليه بثمنٍ أبخس بكثير.

وهكذا، قبِلَ والدي أن يخرج مرغمًا للتقاعُد المبكِّر. كانت الآلاف الخمسة والثلاثون التي حصلَ عليها، كمكافأة نهاية خدمة وكأنها ملعونة؛ لم تمرّ سوى أسابيع حتى أنفقناها عن آخرها، جزءٌ ذهب لعلاج والدي، لكنّ الجزء الأكبر منها أنفقناه في تجهيزات الفَرَح الخاصّ بشقيقتي، حتى إنّ النقود لم تكفِ لشراء كافّة مستلزماتها، ممّا اضطرّنا لشراء ما تبقّى منها بالتقسيط، وهو ما يعنِي أنه كان علينا أن ندفع ثلاثة أرباع المعاش بشكلٍ شهريّ لسداد هذه الأقساط.

ولولا ما كنتُ أساهم به في مصاريف المنزل من جرّاء عملي لكان مِن العسير علينا أن نتوقّع ما يمكن أن تؤول إليه حالنا، ربما انتقلنا مِن محدودي إلى معدومي الدَّخل، وإنْ كنّا في كل حال من الأحوال على عتبات الانضمام إليهم.

ومع ذلك كان معاش والدي هو طوْق نجاتي الوحيد للحصول على تلك الآلاف التي تلزمني للسّفر؛ أقنعتُ والدي بالحصول على قرضٍ بضمان المعاش، لكنني واجهتُ عشرات القيود، التي فرضتها عشرات القوانين المختلفة، كانت بمثابة عراقيل تحول دون تحقيق مُرادي.

كان لا بدّ مِن وجود ضامِن، وهذا الضامِن لا بدّ وأن يكون موظفًا حكوميًا، وألا يقلّ مرتّبهُ عن حدٍّ معيَّن؛ حتى يقوم بالسّداد بدلًا منّي أو بالأحرى عن والدي في حال عجزه عن السَّداد، وكيف يعجز عن الوفاء بهذا الالتزام إذا كان مرتب التقاعُد سيحوَّل إلى البنك مقدِّم القرْض؟ لم أعُد أفهم شيئًا.

كان الأمر معضلة كبرى؛ فمعظم زملاء والدي خرجوا معه على المعاش، ومن بقي منهم خرج لاحقًا بعد ما تعرّضوا للاضطهاد، قبل أن يتمّ الاستغناء عنهم، وتصفية الشركة، وإقامة أبراج سكنيّة محلّها.

وهنا بدأتُ أبحث بين الأقارب والمعارف عن ضامِن، ما أهوَن المبلغ وما أصعب الشروط، لكنّ أغلبهم إمّا ضامِن لمُقترض، أو هو نفسه مقترِض، أو أنه يرى أنّ في الأمر إثمًا يصعب تحمُّله، ومِن ثمّ يعتذر.

لكنْ أغرب ما في الأمر أنّنا وجدنا ضامنًا يعمل مدرِّسًا، لكنّ مديره في العمل رفض توقيع الأوراق، بعد أن أعطاه محاضرة في الحلال والحرام، وهل هناك حرام أكثر ممّا أنا فيه؟ حياتي متوقِّفة على بضعة آلاف من الجنيهات.

وفي الوقت الذي أعجز فيه عن اقتراض آلاف زهيدة، هناك مَن اقترض مليارات الدولارات، بلا ضامِن، قبل أن يرسلها للخارج ويلحق بها، ولكنْ ما شأني أنا، يبدو أنهم صِنْفٌ آخر مِن البشر، أو ربما كانت مشكلتي الوحيدة أنني كنتُ أنوي سداد تلك الآلاف مع فوائدها.

كُلِّلت جميع محاولاتي بالفشل، إلى أن فارقني الأمل كليًّا، وانتهت حالي بالاستسلام ليأسي، بعد أن فقدتُ آخر سهم كان في جعبتي، بعد أن اعتذر ذلك القريب عن كفالتي، لاغيًا الموافقة المبدئيّة التي منحني إياها، دون إبداء أيّ سبب.

خرجتُ مِن عنده وقد اسودّت الحياة في وجهي، سـرتُ تائهًا لا أدري لي وجهة أوليها، حملتني أقدامي من شارعٍ إلى آخر إلى أنْ أتعبني التجوال وأهلكني التفكير، حتى إنني لم أستطع مواصلة السـير من شدة الإرهاق، كل ما أردتُهُ هو الارتماء على فراشـي، لعلّي أسلّم جفنيّ للنوم ولا أستيقظ منه ثانية.

استوقفتُ أوّل حافلة مرّت بي، وصعدتُ إليها، وعلى آخر مقاعدها مِن الخلف ارتميتُ بجسدي، ورحتُ أقلّب الأمر في رأسـي مِن جديد، ربما أعثر على ثغرة تفتح أمامي نافذة الأمل من جديد، لكنْ عبثًا، تملّكتني رغبة عارمة في الصـراخ والبكاء، ولولا اكتظاظ الحافلَة بالرُكّاب لأطلقتُ صـرخةً مدويةً تعبِّر عن حجم الغضب المختزن بداخلي، ولأطلقتُ العنان لنفسـي بالبكاء؛ لربما تمكن من غسل نفسي من الهموم، لكنني لم أفعل.

انتبهتُ فجأة إلى حوارٍ ما يدور بين الشخص الجالس إلى جواري والذي يليه، كانا يتحدّثان بخصوص شـيء ما، لم أنتبه له ولم أدرك مضمونه، قال أحدهما للآخر: «يا أخي قال تعالى في الحديث القدسـي: «وعزّتي وجلالي لأرزقنّ مَن لا حيلة له، حتى يتعجّب أصحاب الحِيَل»».

كانت كلماته بمثابة الترياق الذي أصاب المواضع التي أتلفها يأسـي فأصلحها، لم أنتبه لحديثهما بعد ذلك، كما لم أنتبه له مِن قبل، وكأنه سبحانه أراد أن يرسل لي رسالة عمرهما، «رزقك مكفول؛ فلا تحزن». وقرّرتُ عندها أن أسلّم أمري لمدبِّر الأمور يدبِّره كيف يشاء.

حينما عدتُ للمنزل كان الوقت متأخرًا؛ وتوقعت أن يكون الجميع نيام، وكان ذلك أفضل بكثير بالنسبة لي؛ حتى أتحاشى أسئلتهم التي ستزيد من قدر إرهاقي، لكن مع اقترابي اكتشفتُ أنّ جميع الأضواء ما تزال مضاءة، كما تتصاعد الضحكات مِن بين جنباته.

كانت شقيقتي قد جاءت لزيارتنا، والإقامة عندنا لحين عودة زوجها من إحدى مأموريّات العمل، حيث يعمل محاسبًا، وهو ما يعني أنّ إقامتها قد تمتدّ إلى شهر كامل. كان بإمكانها أن تلاحظ تبدُّل حالي، رغم الابتسامة المصطنعة التي اكتسى بها وجهي.

استغلّت فرصة خلود الجميع للنوم وسألتني عن السّبب، كنتُ بحاجة لمن أشاركه حملي، أفضـيتُ لها بما حدث مِن ذلك القريب، كما إنها كانت ملمّة بكل تفاصـيل

محاولاتي، ودون أن أدري أنها مَن سيقدِّم الحلّ لمشكلتي، اقترحَتْ عليّ أنْ تقرضني مصوغاتها الذهبية، لكن كان عليها الانتظار واستئذان زوجها أولًا، الذي لم يُمانع.

ومع أنّ ثمن المصوغات لم يؤمِّن لي كلّ ما أحتاج إليه مِن أموال، إلّا أنه تكفّل بالجزء الأكبر منها، في حين تكفّل أحد أقارب والدتي بالباقي على أن أسدِّد له مِن راتبي بعد عملي في المطعم الذي يمتلكه في العاصمة الأردنيّة عمّان.

لم يبقَ إلّا ثمن التذكرة، الذي تكفَّلَت به والدتي، عن طريق إحدى الجمعيّات التي تنظّمها على أن أكون المستفيد الأوّل منها، وها هي ذا طائرتي قد حطّت رحالها منذ بضع ساعات، ولا أدري ما ينتظرني؟ وها هو ذلك الصّوت الأنثوي الرقيق ينطلق مجدّدًا:

«يعلن مطار الملكة علياء الدّولي وصول رحلة السّاعة الثانية وعشر دقائق مِن صباح السّبت، القادمة مِن بوخاريست، على طيران الشركة الرومانيّة».

***

بدأ المكان يخلو تدريجيًّا مِن الموظّفين؛ بعد أنْ قَلّتْ حركة الطائرات القادمة، تجمَّعنا معًا في أحد الأركان على مقعدين مُتقابليْن، بعد أن استأثر ثلاثة من بيننا بالمقاعد الثلاثة الباقية، استلقوا فوقها متوسِّدين أيديهم، لائذين بجنّة النَّوم مِن جحيم دائرة التفكير المفرَغَة التي وقعْنا ضحيّة لشراكها.

حاولنا أنْ نتشارك الأفكار لإيجاد تفسير منطقي لذلك التأخير، لكنّ أيًّا منّا لمْ يُقدِّم جديدًا.

قال أحدنا إنه حاول سؤال أحد عمّال النظافة، لكنه عجز عن التواصل معه؛ لأنه لا يجيد العربيّة، تسلَّلْتُ من بينهم باحثًا عنه، وجدتُهُ يجلس بالقرب مِن الحمّامات، كان شابًّا آسيويًّا، بدا لي أنه لم يتجاوز العشرين من عمره. يبدو أنني سأتمكّن أخيرًا مِن الاستفادة مِن دَوْرات اللغة الإنجليزية التي حصلتُ عليها، وإن كانت لم تسعفني في سوق العمل، ربما تساعدني الآن في إيجاد أجوبة لأسئلتي. تقدَّمْتُ منه وألقيتُ عليه التحية، وسألته:

- «هل تتحدَّث الإنجليزية؟»

- «نعم».

انفرَجَت أساريري، وقرَّرتُ طرح سؤالي التالي:

- «هل تعلم سبب تأخُّر إجراءاتنا؟»

- «نعم».

- «وما السّبب؟»

كانت إجابته محيِّرةً لي؛ فلم يجِب سوى بِـ»نعم». سألتُه مجدَّدًا: «هل فهمتَ مقصدي مِن السؤال؟».

- «نعم».

- «هل هذا التأخير أمرٌ طبيعيّ؟ هل يحدُث بشكلٍ مستمرّ؟» أجاب: «نعم». وعندها فقدتُ الأمل في الحصول على إجابة منه، وأدركتُ أنه لا يعرف مِن الإنجليزية إلّا كلمة واحدة، «نعم»، فشكرتُه، وعدتُ للجلوس مع البقيّة.

كان الموظفون وجميعهم مِن رجال الشـرطة، قد تسلّلوا إلى داخل إحدى الغرف بعد انتصاف الليل، ليخلو المكان منهم، باستثناء شـرطي وحيد كان يخرج بين الحين والآخر؛ لإنهاء إجراءات الخروج للمسافرين عبر الرحلات القادمة، ليعود بعدها إلى الغرفة ذاتها، ولا يخرُج إلّا مع قدوم رحلة أخرى.

كان النعاس قد فارق أعيننا، بعد أن ولّت ساعات الليل الأولى، السّاعات الأولى مِن صبيحة اليوم التالي، كففنا عن التثاؤب والتمطّي اللذين تفشّت حُمّاهما بيننا في وقتٍ سابق.

بدأَتْ روح الدعابة والسخرية تسـيطر علينا، أطلقنا النّكات التي تسخر مِن كلّ شـيء وأوّلها حالنا، علت ضحكاتنا بين الحين والآخر، كنّا نحاول الهروب مِن حالة القلق الذي سـيطر علينا. دقّ هاتف خلوي، ظللتنا فجأة سحابة مِن الصمت. وتوجَّهَت أعيننا إلى مصدر الصّوت، التقط أحدنا حقيبة صغيرة ملقاة على الأرض إلى جوار قدمه، قبل أن يجيب على التساؤلات التي حاصـرتْهُ عبْر نظراتنا:

-» إنه هاتف خلوي أرسله شقيقي مع أحد أصدقائه، تحتوي على شريحة اتصال إحدى شبكات الهاتف الأردنية؛ حتى يتمكّن مِن الاتصال بي والاطمئنان عليّ، لدى وصولي».

قبل أن يجيب على الهاتف، ويشـرح للمتّصل بالتفصـيل ما حدث معنا، وما تنامى إلى مسامعنا مِن تفسـيرات، وما توصّلنا إليه مِن استنتاجات، لم يكد ينهي المكالمة حتى دقّ الهاتف مِن جديد، كان المتصل يطلب التواصُل مع أحد الجالسـين معنا، يبدو أنّ مَن قدموا لاصطحابنا قد تجمَّعوا معًا بالخارج في جلسة شبيهة بتلك التي نحن عليها، وكأنه وباء ألمّ بالهاتف؛ ما أن تنتهي مكالمة حتى تبدأ أخرى.

كان صاحب الهاتف يردِّد رقم المتصل قبل أن يجيب، ربما يتعرّف عليه أحدنا، أخرج كلّ منّا قائمة الأرقام التي أحضـرها معه، فتّشتُ في ملابسـي عن رقم هاتف قريبي الذي ينتظرني بالخارج، لا بدّ وأنه قلقٌ عليّ، سأطلب منه أن يطلب الرقم؛ ويدعني أكلمه دقيقة واحدة.

دقّ الهاتف مِن جديد، وصاحبه يردِّد رقم المتصل، لكن لا أحد يتعرّف عليه، فيعيد تكراره، انتبهتُ إلى أنه الرقم نفسه في الورقة التي أحملها بين يديّ، التقطتُ الهاتف، ورحتُ أردِّد القصّة نفسها التي ردَّدها الجميع مِن قبلي.

أعاد إليّ صوته شـيئًا مِن السكينة التي فارقتني، فهدَأت نفسـي واستكانت، وإن لم تقضِ على كامل قلقي. لم يلبث أنْ صمت الهاتف بعدها، بعد أن تلقّى أغلبنا اتصالاً مِن قريب، أو شقيق، أو حتى صديق، وها هو ذلك الصوت الأنثوي الرقيق ينطلق مجدَّدًا:

«يعلن مطار الملكة علياء الدّولي وصول رحلة السّاعة الثانية وخمسـين دقيقة صباح السّبت، القادمة مِن فينّا، على طيران الشـركة النمساويّة».

***

مرَّ نحو ساعتين لم يخرج علينا خلالهما أيّ من هؤلاء الشـرطيين القابعين داخل تلك الغرفة، وكأنّ حركة الطائرات قد توقّفَت، أو أنهم عزفوا عن استقبالها، لكن أغلب الظنّ أنه يتمّ استقبال القادمين داخل إحدى القاعات الأخرى في المطار.

قبل أن يخرج علينا ذلك الشـرطي الذي بَدَت واضحة عليه علامات النّوم، الذي حُرمنا منه، رغم ما نحن عليه من إرهاق، لم يكفّ عن التثاؤب والتمطي، جلس خلف مكتب ذي واجهة زجاجيّة بها نافذة صغيرة، كان جزءًا مِن مجموعة مِن المكاتب المتراصّة إلى جوار بعضها بعض، لتشكِّل حائطًا، تترك إلى جوار آخرها مساحة صغيرة تسمح بالكاد بمرور شخص واحد، تفضـي إلى ردهة صغيرة تقود إلى خارج القاعة.

استقرّ أمام أحد أجهزة الكمبيوتر، وأشار إلينا بالقدوم، فهرعنا نحوه، وتزاحَمْنا أمام النافذة الصغيرة التي تنتصف الحائط الزجاجيّ، قبل أن ينظر إلينا بحنق، وبشدّة وحزم قال: «عودوا إلى الوراء، وقفوا في الصفّ عند ذلك الخط»، مشيرًا بيده إلى تلك العلامة المرسومة على الأرض.

اصطففنا بعضنا خلف بعض، وبدأنا في الخروج واحدًا تلو الآخر، تقدّمتُ صوبَهُ، وقدَّمتُ له جواز سفري، وخلال دقيقة كنتُ أتوجّه صوب درجات السلّم الثلاث التي هبطت بي إلى ردهة صغيرة قادتني إلى قاعة أخرى، حيث بحثتُ عن حقائبي وسط مجموعة أخرى مِن الحقائب إلى أنْ وجدُتها.

وها هو ذلك الصوت الأنثوي الرقيق ينطلق للمرّة الأخيرة على مسامعي قبل أن أغادر، مُعلنًا وصول رحلة جديدة، كان الصوت يتباعد عن مسامعي وأنا أشقّ طريقي صَوْب البوّابة الخارجيّة للمطار:

«يعلن مطار الملكة علياء الدّولي وصول رحلة السّاعة السادسة وعشر دقائق صباح السّبت، القادمة مِن تل أبيب، على طيران الشركة الملكيّة الأردنيّة».

***

توقفتُ فجأة، لم أستطع التقدُّم للأمام أكثر من ذلك، شعرتُ أنّ الأرض تميد بي، قواي تخور، قدماي لا تكادان تحملاني، متأكّد أنني لم أخطئ السَّمع؛ أذني لم تخذلني يومًا... تل أبيب؟!

تناسيتُ في لحظةٍ إرهاق ليلتي الماضية، ورأيتُ بعينَيْ ذاكرتي صورة والدي أو بالأحرى بقايا الإنسان منه؛ بعد أن غلبهُ الحزن وهرِم قبل أوانه. أفتقد لوالدي في صورتِهِ القديمة المعلّقه على الجدار بزيِّه العسكريّ وهو يقلّد نجمة سيناء.

استحضرتْ ذاكرتي أشلاء الضحايا، وأنهار الدماء التي لا تكاد تجفّ في فلسطين حتى تتفجّر مِن جديد. المشاهد التي تتناقلها وسائل الأخبار مِن غزة التي تئنّ تحت وطأة الحصار والجوع لا تفارق مخيّلتي.

أيّ سلام هذا المذلّ المهين؟ وهل حقًا يمكن أن نتعايش معهم؟ كيف يمكن لاتفاقات السّلام المزعومة أن تثمر إذا كانت تروى بدماء الأبرياء؟ هل حقًا يمكن للإنسان أن يتعايش مع مرض السرطان؟ رغم أنه يعلم جيدًا أنه لا نجاة منه إلا بمقاومته، معركة شرسة بين الخلايا السرطانية التي تحاول أن تنشر فوضاها، وتسيطر على

باقي خلايا الجسد، والجهاز المناعي الذي يحاول جاهدًا مِن جهة أخرى أن يوقف تقدُّمها، ويقضي عليها، معركة تنتهي بانتصار طرف على الآخر، إمّا أن تسيطر الخلايا السرطانية على باقي الجسد فيهزل ويموت، أو أن تقوى ممانعته، ويستعيد مقاومته لها؛ فيتخلّص منها ويقضي على فوضاها، ومعركتنا الانتصار فيها حتميّ.

كان بإمكاني أن أميِّز وجوههم وهم يغادرون مِن أمامي، جميعهم مِن الصهاينة المتطرِّفين، يمكن معرفة ذلك مِن القلانس السوداء التي تعلو رؤوسهم «الكيباة»، ولا يرتدي الأسود منها إلا غلاة متطرفيهم.

بدأت الدماء تغلي في عروقي، وبشكل لا إرادي بدأتُ أخطو نحوهم، لكنني توقَّفتُ فجأة بعد أن انتبهتُ على يدٍ تحطُّ على كتفي، التفتُّ للخلف كان قريبي الذي قدِمَ لاستقبالي، سألني:

- «إلى أين تتّجه؟»

تلعثمت، وادّعيْتُ أنني أبحث عن طريق الخروج، ابتسم وأخبرني أنني أسير في الاتجاه الخطأ وأنّ طريق الخروج في الاتجاه الآخر.

ساعَدَني بعدها في حمل حقائبي وتوجَّهنا صوب سيارته التي كانت تنتظر خارج المبنى، بدأ يسألني عن أخباري أوّلًا، قبل أن يسألني عن أحوال الأهل والأحباب في مصر، وبعد دقائق لم نعُد نجد ما نتحدَّث بخصوصه فآثرنا الصّمت.

كان بإمكاني أن أتنسّم هواء الصُّبح العليل وهو يتسلّل إليّ عبْر نافذة السيارة، وأضواء النهار تطارد ما تبقّى مِن فلول الليل التي كانت تولي منهزمة، ومدينة عمّان تظهر برؤوس مبانيها في الأفق البعيد.

لم يكن بإمكاني مواصَلَة الاستمتاع بالمشهد، كان هناك حالة من الخَدَر تتسلل إليّ عبْر أوصالي؛ بعد أن شعرتُ بالدفء في مقعدي، وقرَّرتُ أن أستسلم لجفوني التي كانت تنسدِل فوق عينيّ رغمًا عنّي، لتحرمني مِن ذلك المشهد البديع.

نهايةٌ وبدايةٌ

أوّلًا

كنتُ أنتظرُ على رصيف الشارع، حينما رأيتُها تمرُّ مِن أمامي على الرصيف المُقابل، كانت كما هي، مثلما رأيتُها للمرّة الأولى، منذ سنوات كثيرة تعبت من عدها، لم يتبدَّل عليها شيء؛ وكأنّ السنوات الثلاث والعشرين الماضية لم تؤثِّر فيها، فلم تظهر عليها علامات التقدُّم في السنّ كما ظَهَرَت عليّ، بعد أن تحوَّل شعري عن لونه الأسود الفاحم، وغلب عليه اللَون الأبيض الثلجيّ، وتلك التغضنات التي تظهر بوضوح على صفحة وجهي، لكن كل ذلك لا يقارن بتلك الشحوم الكثيرة التي يحملها جسدي، وتظهر بوضوح في منطقة المعدة، ولا يفلح ارتدائي للبزات الرسمية في إخفائها، وإن حسنت من منظرها كثيرًا، في حين بَدَت لي وكأنني ودَّعتُها بالأمس فقط.

أردتُ اجتياز الشارع وإلقاء التحية عليها، لكنني ترددت؛ إلى أن حسمت قراري وتراجعتُ عن الفكرة نهائيًا؛ لم يكن بإمكاني توقُّع ردّ فعلها نحوي بعد كل هذه السنوات، هل ترحِّب بي وكأنّ شيئًا لم يكن؟ أم تراها تتجاهلني وتنكرني؟ أم...؟ أم...؟ أم...؟ الكثير من الاحتمالات التي ماج بها رأسي، تسمَّرتُ في مكاني، وعيناي ترقبانها وهي تنسحب بعيدًا، إلى أن توارَت في الجموع، وذابت وسط زحام الشارع.

أغمضتُ عينيّ للحظات فارقْتُ فيها الزمان والمكان، مستعيدًا عبير ذلك اللقاء الأوّل، أثناء حضوري زفاف أحد أقاربي في إحدى قاعات الأفراح، كانت المرّة الأولى التي أراها فيها، رغم صلة القرابة التي تجمعنا، والتي اكتشفتُها بعد ذلك، كان بها شيءٌ ما جذبني نحوَها ما إن وقع نظري عليها، لا أدري ما هو تحديدًا؟ أهو وجهها المُشرق؟ أم هي ضحكتها الآسرة الساحرة؟ ولِمَ لا؟ أو ربما تصرفاتها الطفوليّة، التلقائيّة البريئة، والأغلب أنها كلّ هذه الأمور مجتمعة وأكثر.

كانت هناك على بعد أمتار مني، تلتف وصديقاتها حول إحدى الموائد، التي احتلت وسط القاعة ، تتلألأ مثل ألماسة وسط عقد من حبات اللؤلؤ، شمس مشرقة وسط عدد من الكواكب، تستمد منها النور والحياة. ارتدت ثوب تركوازي اللون، توشحه مجموعة من الورود السوداء الناعمة، التي تمتد على شكل عقد حول ياقة الفستان، ومنه تنسدل مجموعة من الخيوط السوداء الرقيقة نحو الأسفل، وتصب في طوق صغير من ذات الورود السوداء، يلتف حول خصر ممشوق، ومنه تنسدل مجموعة

كبيرة من الورود سوداء اللون، وإن كانت أصغر حجمًا، تسقط نحو الأسفل بشكل عشوائي، وتغطي الجزء السفلي من الفستان، الآخذ في الاتساع كلما اقتربنا من الأرض، وكأنها تستعد لصب ورودها عليها.

طوال السهرة وعيناي لا تكادان تغادرانها حتى تحطان عليها مِن جديد، أختلس النظرات منها بعيدًا عن عيون الحاضرين، لكن ذلك لم يمنعها من ملاحظة اهتمامي بها؛ بعد أن ضبطتني متلبسًا بالنظر إليها أكثر من مرة؛ وكلما أمسكت بي أسارع في الإشاحة بنظري بعيدًا في أي اتجاه آخر، قبل أن أعود وأحط بنظري عليها من جديد، حينما أتأكد أنها لا تنتبه لي.

استمرَّت حالتي هكذا إلى أن انتهى الحفل، وهَمّ الجميع بالخروج خلف العروسين، تثاقلتُ في خطواتي حتى يخفّ الزحام، والتدافُع حول باب القاعة، وما إن أوشكتُ على الخروج حتى فوجئتُ بمَن يجذبني مِن ذراعي للخلف؛ التفتُّ باستغراب، ولا أعرف إلى الآن ما الذي انتابني ساعتها، كانت هي، كان الأمر أبعد مِن حدود توقُّعي، وكان أول سؤال ورد إلى ذهني، ما الذي يدفع فتاة إلى مثل هذا التصرف الجريء مع شخص غريب مثلي؟

عجزتُ عن تفسير الأمر، وهو ما عكَسَتْهُ تلك الابتسامة البلهاء التي كَسَت وجهي، أنكون قد التقينا مُسبقًا؟ ولكن أين؟ كما إنني لا أتذكَّر مثل هذا اللقاء، كل هذه الأسئلة دارت في رأسي، وراحت تدفع بعضها بعضًا، دون أن أعثر على إجابة لأيٍّ منها، إلى أن استقرَّ تفكّري إلى أمرٍ واحدٍ؛ «لا بد وأنها ستعنِّفني، وتسألني عن سبب تحديقي بها طوال الوقت»، بينَما ارتَسَمَت على شفتيها ابتسامة هادئة، وكأنها تنتظر أو تتوقّع منّي شيئًا ما، قطَعَت عليّ تفكيري قائلة: «ألا تعرفني حقًا؟»، أربكني سؤالها، وشعرتُ بالإحراج الشديد، لم أجد بدًّا مِن المُراوغة في الإجابة؛ لعلّي أحصل منها على إشارة، تساعدني في التعرُّف عليها، تلجْلَجْتُ في الكلام: «ليس بالضبط، لكن ذاكرتي لا تسعفني». أجبت.

- «ربّما لأننا التقينا قبل سنوات».

ازدادَت حيرتي أكثر، أيّ سنوات تقصد؟ لا بدّ وأنها كانت طفلة آنذاك.

- «أنا في غاية الأسف؛ لأنني لا أتذكر». قلت.

صمتَت لثوانٍ، وكأنها تمنحني بعض الوقت على أمل أن أتذكّرها، بدأتُ أثناءها في طرح الكثير مِن الاحتمالات على نفسي، استدْعَت ذاكرتي عشرات الصُّور ومئات

المواقف، وعرضَتها عليّ، لكنني أدركتُ عجزي في النهاية؛ وما كان مني إلا أن أعلنتُ استسلامي.

- «سلمى رامي».

فقلتُ في نفسـي: «أيّ سلمى تقصد؟»، وهنا أدركَتني قائلة: «سمسمة».

- «ماذا؟ لا يمكن، أنتِ حقًا هي؟ أنتِ تلك الطفلة الصغيرة! لكنكِ صـرتِ...»

وبعدها لم تسعفني كلماتي، ولم أجد في مفرداتي ما أعبِّر به؛ فآثرتُ الصمت، مكتفيًا بتلك البسمة التي عكَسَت فرحتي.

خفَضَتْ عينيها إلى الأرض خجلًا قائلة: «تقصد شابة وجميلة أيضًا، كما أنني في عامي الجامعي الأخير». تبادلنا أرقام الهواتف، ومضى كلٌّ منّا في طريقِه، وصار الأمر مجرَّد ذكرى جميلة، كلما تذكرتُها كنتُ أشعر بنشوة تسـيطر عليّ، ويتسلّل خدرها إلى مشاعري فتنتشـي.

ثُمَّ

بدأ طيفُها يطاردني أينما حللت، وتملَّكتني رغبةٌ قويّةٌ وعارمة، راحت تجتاحني، وتحثني على الاتصال بها، وسماع صوتها، والتعرُّف عليها أكثر، لكنّني تردّدتُ، وبين الرغبة والتردُّد حسمتُ أمري، وقرّرتُ التريُّث قليلًا، كان لديَّ ذلك التحفُّظ الذي لم أستطع تجاوزه، فنحن لم نلتقِ سوى مرّة واحدة، مرّة واحدة فقط، لذا كان عليّ التأكُّد أولًا من حقيقة وطبيعة مشاعري نحوها، ومدى جديَّتها، وإمهال نفسي الوقت الكافي لتحديد ملامح هذا الشعور الذي بدأ يتبلوَّر داخلي.

في الوقت نفسه بدأ شخصٌ ما في الاتصال بي، وما إن أجيب على الهاتف حتى يسرع في إنهاء الاتصال، في كل مرة يدق جرس الهاتف أجيب: «ألو، ألو، ألو...»، لكن لا أحد يجيب على الطرف الآخر؛ وهو ما يضطرني لإنهاء المكالمة، رجحت أنها فتاة؛ لا أحد في المنزل سواي أنا ووالدتي، بعد أن تزوجت شقيقتي؛ وهو ما يعني أن المتصل إما يقصدها أو يقصدني، وبما أنها قد تجاوزت هذه المرحلة منذ عقدين أو ثلاثة، إذا أنا هو المقصود.

وتأكدت شكوكي في أنها فتاة؛ من المرّة الوحيدة التي تحدَّثَتْ فيها المتصلة المجهولة؛ كان صوت نسائي، وقال كلمة واحدة: «أحبُّكَ»، قبل أن تنهي المكالمة، وحتى قبل أن تمنحني فرصة للتحدُّث والرد، ولم تفلح محاولاتي في إعادة طلب الرقم الظاهر على شاشة الهاتف الأرضي الذي اشتريته حديثًا، بخاصية إظهار رقم المتصل لأنها كانت تتصل من أحد أكشاك التليفون الثابت المنتشرة في شوارع المدينة، لم نكن وقتها قد تعرَّفنا على الهواتف النقّالة، بهذا الانتشار الذي أصبحت عليه الآن والتي باتت مرض العصر. عشرات الاحتمالات ماج بها رأسي، لكنْ جميعها كانت تنتهي بي إلى نتيجة واحدة، وهي أنها المتصلة، أو هكذا تمنَّيت.

كان قلبي بكرًا، لم يعاقر الحبّ من قَبْل، ولم ينتشِ بسكرته، فلم تفلح أيّ فتاة قبلها في اجتياز سياجه، لكنّ ما كان يحيِّرني اعتقادي أنّها «سلمى»، ولماذا هي بالذات؟ رغم عدم وجود دليل واحد ملموس بين يدي يؤكد ذلك، أيكون الحبّ من النظرة الأولى؟ لم أعرف الإجابة، لكنّ ما أعرفه جيدًا أنني تهتُ في عالمها، وبتُّ أغزل أحلامًا أتمنى أن تصبح واقعًا تشاركني فيه.

جرَّبتُ مجموعةً من المشاعر والأحاسيس التي لم ألامسها من قبل، ونبت لي جناحان، حلقت بهما عاليًا في في الفضاء البعيد، وهو ما كان يحدث لي كلما أغلقت عيني، واستحضرت صورتها في مخيلتي، كما أصبح للسعادة معنى آخر لدي، وهي

تلك النشوة التي يرتوي بها قلبي، كلما مرّ طيْفها في خيالي، ذلك الطيْف الذي لم يعد يفارقني في صحوي ومنامي، أما عيناها فلا تكادان تتركاني أهنأ بطعام؛ وما أن أتذكر بريقهما حتى أشعر بالشبع. وفي المساء أرى وجهها في استدارة القمر بدرًا، أراها بعيدًا وهي تبتسم لي. أمّا في نومي، فلا يكاد يمرّ يومٌ دون أن تزورني في أحد أحلامي، وتبثني همس الحب وأشواقه.

وأخيرًا تغلَّبَتْ عليّ مشاعري؛ وقررتُ الاتصال بها، وإرواء ظمئي مِن صوتها، لكنني ما إن أمسكتُ بسماعة الهاتف، وشرعتُ في الاتصال بها، حتى تملكتني الرهبة؛ ومعها أسرعتُ في إنهاء المكالمة، وحتى قبل أن أسمع صوت الهاتف يدقّ على الجانب الآخر، كنتُ مترددًا؛ وكان سبب تردُّدي الحجّة التي يمكن أن أسوقها وأبرِّر بها اتصالي.

مرَّت أيام واستحالت إلى أسابيع وأنا على هذه الشاكلة، كلّ ما أقوم به هو مجرّد مُحاولات غير مكتملة للاتصال بها، مجرّد محاولات أجهضها خوفي وترددي، وفي مفاجأة غير متوقعة، لم أصدق عيني حينما رأيت رقم هاتفها يتراقص أمامي على شاشة الهاتف، وساعتها غمرتني سعادة بالغة؛ وخشيت أن يغمى عليّ من فرطها، يبدو أنها كانت أكبر جرأة، وأكثر إقدامًا منّي، لكن الأهم أن ذلك لا يعني إلا شيئًا واحدًا، وهو أنها تشاركني المشاعر نفسها، ولم أكد أمد يدي لالتقاط سماعة الهاتف حتى توقف صليله؛ ومن فرط غضبي كدت أحطمه لم أتردَّد للحظة واحدة وأعدت الاتصال بها فورًا؛ فقد أصبحتُ أمتلك السَّبب الذي بحثتُ عنه طويلًا للاتصال بها.

ورغم أنها ادّعَت أنّ اتصالها كان عن طريق الخطأ، إلا أنني كنتُ متيقِّنًا من أنها تكذب، وأنها تعمَّدت مهاتفتي، وهو ما علِمْتُهُ منها بعد ذلك، كما تأكدتُ منها أيضًا فيما بعد أنها كانت تلك المتصلة الغامضة التي كانت تغازلني عبْر الهاتف.

وكانت هذه المكالمة بداية لسلسلة من المكالمات، التي لم تتوقف بعد ذلك، وبدأت تتقلّص المسافة فيما بينها، حتى إنه لَم يعُد يمرّ يوم دون أن يتصل أحدنا بالآخر. في البداية كانت المكالمات قصيرة مقتضبة، تقتصر على تبادُل التحيّة، وبعض عبارات المُجاملة، لكن بمرور الوقت أخذت المواضيع التي نتحدّث فيها تتفرّع وتتشعّب، بدأنا في التعرُّف بعضنا على بعض، وحملتني مشاعري معها بعيدًا إلى مواضع لم أكن لأدركها مِن قبل.

ومع ذلك لم تعد مكالماتنا الهاتفيّة كافية بالنسبة لي، ولم يكن بإمكاني طلب رؤيتها؛ خاصّة أننا لم نتصارح بحقيقة مشاعرنا، وإن اكتفينا ولو مؤقتًا بما تتضمَّنهُ أحاديثنا

مِن تلميحات، لم تكُن تخفى على كليْنا، وكأن كلينا ينتظر أن يصارحه الآخر بحقيقة مشاعره أولًا، وكأننا استهوانا حديث الحب باستخدام عبارات الكناية والتورية.

ولا أدري مِن أين امتلكتُ الجرأة؟ استغللتُ فرصة قدوم العيد، ووجدتُ نفسي أطرق باب منزلها؛ بحجّة المُعايَدَة على أسرتها، وفي الواقع لم أكن أرغب سوى في رؤيتها هي، والمعايدة عليها. رغم أنها المرّة الأولى التي أزورهم فيها مُنفردًا، بعيدًا عن تلك الزيارات التي قمتُ بها في صغري رفقة جدّي، لمعايدة أقاربنا، وكانت أسرتها مِن ضمن هؤلاء الأقارب الكثيرين، الذين اعتاد أن يصل رحمه بهم، ولم يكن هناك أفضل من العيدين لإتمام هذه الزيارات، لكنها سرعان ما توقّفت مع وفاته، ادّعيتُ أنني كنتُ في الجوار؛ لذا اغتنمتُ الفرصة وقَدِمتُ إليهم.

قوبلتُ هناك بحفاوةٍ كبيرة، حتى إنني قضيتُ اليوم كاملًا برفقتهم، وما تزال تفصيلات ذلك اليوم تعلق في ذاكرتي، ما أزال أتذكّر تلك الدهشة التي ارتسمَت على وجهها، ولم تنجح في إخفاء تلك الابتسامة التي اعتلت شفتيها لدى رؤيتي، بدأت والدتها في استعراض بعض ذكريات الماضي، بعضها يخصّني في صغري، حينما كنتُ آتي في تلك الزيارات مع جدّي، لكنني كنتُ مشغولًا عنهم جميعًا، اكتفيتُ بالابتسام، ورغم أننا كنّا وسط الجميع إلا أننا كنّا بمفردنا، ومع أننا لم ننطق بكلمة واحدة بعيدًا عن أعين الجمْيع، إلا أنّ أعيننا لم تترك كلمة من كلمات الحب والغرام دون أن تبوح بها خلسةً، بعيدًا عن الأعين التي بدأت تلحظ بعض النظرات المتبادلة بيننا، التي حاولنا اختلاسها بعيدًا عن أعينهم.

« -اشتقت إليكِ».

- «أنا أكثر منك».

- «أحبكِ».

- «أهيم فيك عشقًا»، قالت عيناي وأجابت عيناها.

***

الأوقات السعيدة دائمًا ما تنقضي سريعة، وتتسرب مِنا دون أن نشعر بها، كحفنة ماء نحاول عابثين أن نمسك بها في أكُفّنا، وكلما شددنا من إحكام قبضتنا عليها، ازدادت وتيرة تسربها من بين أيدينا؛ لنكتشف في النهاية أننا نقبض على لا شيء. انقَضَت إجازتي، وكان عليّ أن أعود إلى عملي، مدرِّسًا للُّغةِ العربيّة في إحدى المدارس

الابتدائية في واحة «سـيوة».

تلك الجوهرة المدفونة في عمق الصحراء، والتى كانت في يوم من الأيام من أهم حواضر العالم القديم؛ لكونها مركزًا لعبادة «آمون». لكنها تقبع الآن تحت طبقات من الإهمال والنسيان. وكان أول ما حرصت على زيارته فيها «معبد وحي آمون»، الذي اشتهر بصدق نبؤاته قديمًا؛ فكان الحاكم منهم يحرص على زيارة المعبد في بداية حكمه؛ ليحصل على البشارة برسوخ عرشه أو زواله، حتى الغزاة منهم آمنوا بذلك، إلى هنا جاء «الإسكندر» و»قمبيز». صعدت إلى قلعة «أورامي»، لأجد نفسي في حضرة المعبد، جبت في جنباته، بدءًا بالجزء الفرعوني منه، ثم انتقلت لتفحص الأجزاء التي أضيفت عليه في العصر البطلمي، وأخيرًا انتهيت بالشواهد المضافة إليه في العصر الإسلامي، وعلى رأسها تلك المئذنة، التي تقف شامخة بكبرياء في أحد جوانب المعبد. ورحت أفتش عن نبؤة أخيرة تخبرني، إلى أين تسير بنا الحياة في المحروسة؟! لكن جولتي انتهت، ورحلت دون أن أحصل على تلك النبؤة التي بحثت عنها.

رغم أنها لم تكن الوظيفة المُثلى لاعتبارات كثيرة، وفي مقدمتها ضعف المرتب وبعد المسافة، إلا أنها على الأقلّ ضمنَت لي العمل بشهادتي، ومع كل ما تحمله من عيوب، كانت سببًا يحسدني عليه الكثير من زملائي، وإن كان جدول تدريسي يشمل إلى جانب اللغة العربية كل من، التربية الإسلامية، والدراسات الاجتماعية، وأحيان كثيرة اللغة الإنجليزية، في حين اعتذرت عن تدريس الرياضيات؛ وكانت واحدة من المواد التي مثلت لي عقدة عندما كنت طالبًا، عبر مراحل التعليم المختلفة.

ومع أنني بتُّ واثقًا مِن حقيقة مشاعري نحوها، والأهمّ أنّ مشاعرها نحوي باتت أيضًا واضحة جليّة لي، لكنني قرَّرْتُ عدم مصارحتها، وإمهال نفسـي بعض الوقت، وكان السفر وسيلتي للهروب والتأجيل؛ فمُصارحتها تعني أنْ أتّخذ الخطوة التالية، وهي وضع علاقتنا في إطارٍ مِن الرسميّة، تترتّب عليه مجموعة مِن الالتزامات الماديّة التي لم أكُن مستعدًّا لها، على الأقلّ كان عليّ التخلُّص أولًا مِن بعض الدُّيون المتراكمة؛ والتي ترتَّبَت عليَّ مِن زواج شقيقتي الصغرى.

كما كان بداخلي صـراعٌ مِن نوعٍ آخر، وهو عبارة عن مجموعة من الأسئلة التي عجزتُ عن الإجابة عنها بشكل قاطع، هل أنا حقًا مستعدّ لاتخاذ خطوة تكوين أسـرة وتحمُّل مسؤوليتها؟ إلى الآن أنا لا أتحمل سوى مسؤولية نفسي، ولا يهم إن كنت أعمل أم لا، لا هم لدي إن كان جيبي متخم بالمال أو كنت مفلسًا، وحتى إن جعت أو شبعت؛ أنا لن أشتكي من نفسي، لكن أن تصبح مسؤول عن شخص آخر،

الأمر جد مختلف.

وحتى إن تجاوزت هذه الأمور جميعها، يبقى لدي السؤال الأهمّ؛ ماذا إن كان اختياري في غير محلّه؟ خاصّة أننا لم نتعرّف جيدًا على بعضنا بعض، فهذه الاتصالات المتبادلة بيننا رغم كثرتها، إلا أنها لم تكشف لكلينا سوى جانب بسيط من شخصية الآخر، ومن المؤكد أن كلانا يحاول إبراز أفضل ما فيه، وغير متعمد يخفي نقاط ضعفه، هل يمكن أن تكون الصورة التي رسمها كلّ منّا للآخر خادعة؟ سرعان ما تتبدّل مع الوقت، ونكتشف بمروره أنّ اختيارنا لم يكن موفّقًا من البداية، وأنْ يتحوّل هذا الحبّ إلى كراهية، وربما عداوة. وساعتها يكون الانفصال صعبًا، كما تكون خسائره كبيرة، حتى وإن قرّرنا التعامُل مع الأمر الواقع ومجاراته، تكون خسارتنا أكبر؛ لأنّنا سنضحي بسعادتنا؛ وبالتالي نفرط في أنفسنا، قد أكون شخصًا معقدًا؛ فالمشاعر لا يمكن أن يحكمها العقل، كما اعتدتُ دائمًا أن أجعله رقيبًا على كلّ تصرفاتي، وهو السّبب في تلك الحيرة التي أشعر بها، والدافع الرئيس لتردُّدي، لكنّني أيضًا أرفض أن أسلم الحكم على مشاعري إلى قلبي فقط؛ وكما يقول المثل: «مرآة الحب عمياء»، ما نراه فيها لا يكون سوى انعكاس لمشاعرنا، بغض النظر عن مدى تطابقه مع الواقع، لذا قرّرتُ أن أعقد صلحًا بين عقلي وقلبي، وأن أمنْح نفسي بعض الوقت، حتى تصبح الأمور واضحةً جليّةً أمامي.

قبل سفري بساعات قليلة وجدتها تطرق باب منزلنا، وكم كانت مفاجأة سعيدة! فقد قدِمَت برفقة والدتها لزيارتنا؛ ووصل حبل الود، الذي تمزق منذ أمد بعيد، وكنت من أعاد وصله بزيارتي تلك يوم العيد، وألححت عليهم يومها على ضرورة رد الزيارة، وهو ما كان يعني لي فرصة ثانية لرؤيتها، لم يكن الأمر ليخفى عليّ، اعتبرتُ الزيارة بمثابة مُباركة مِن والدتها لقصّة حبّنا الوليدة، لم تكن نظراتنا لتخفى عليها؛ وهي المرأة التي اختبرت الحياة، وودكتها على مدار أربعة عقود ونصف.

- «نشتاق إليكَ مِن الآن، وننتظر عودتكَ سالمًا». قالت لي.

انتشى قلبي فرحًا بكلماتها؛ واعتبرتُهُ وعدًا منها بانتظاري.

-«سأكون أكثر اشتياقًا لرؤيتكم من جديد». أجبت.

التّالي

لم أخطِّط لمصارحتها، والإفضاء إليها بمكنون مشاعري صـراحةً، وحافظت على ترددي، مستخدمًا عبارات الاستعارة والكناية التي غلَّفَت أحاديثنا؛ محاولًا تأجيل الأمر قدر استطاعتي؛ حتى أستطيع التخلص من تلك الهواجس والظنون التي تتأرجح داخلي، لكنّ مجرى الأحداث سارَ بي إلى غير ما نويتُ وخطَّطت له، ووجدتُ نفسـي أخبرُها صـراحةً ودون أيّ مقدِّمات بحقيقة مشاعري، التي لم تكن تجهلها، جرى الأمر بدرجة كبيرة مِن السلاسة، لم أتوقّع أن يجري هكذا، بعيدًا عن الشكل المعقّد الذي رسمَتْهُ مخيّلتي.

وكنت قد خططت لهذه اللحظة كثيرًا؛ متحيرًا في اختيار الوسيلة التي استخدمها لإخبارها، مرة أقرر أن أكتب لها رسالة، ومرة أخرى أقرر الاتصال بها؛ وإخبارها عبر الهاتف، وثالثة أحسم أمري وأختار المواجهة وجهًا لوجه، ورابعة وخامسة.

يزيد من حيرتي قلة خبرتي في مثل هذه المواقف، وعدم وجود من أستطيع استشارته من الأصدقاء؛ لو أنني أخبرت أحدهم لسارع لإخبار البقية؛ وساعتها سأكون محط سخريتهم، وسأُتهم بالسذاجة، ولسارعوا في إبراز عنترياتهم في عالم النساء، والتفاخر بها، وكغيرهم من أبناء جيلنا، يرون الحب مجرد «قُبْل وأحضان»، مجرد لذة وغريزة.

بالنسبة لي الحب أكبر من ذلك بكثير، «روح ومشاعر»، نفس واحدة انقسمت شطرين في بدء الخليقة، نطفتين حملتهما ظهور البشرية آلاف السنين؛ ليكون مولدها في زمان ومكان واحد، وباجتماعهما تكتمل تلك النفس التي انشطرت نصفين، وعانى كل منهما أعراض النقص دون الآخر.

دائمًا ما رددت ذلك على مسامعهم: «سأحتفظ بقلبي صندوق مغلق، أرض بكر بكامل خيراته؛ لا تحصل عليه إلا من تتمكن من فك طلاسمه وقهر رصده»، وكنت كما يقال أزيد من الشعر بيت قائلًا: «أعتقد أنني ولدت في زمن خاطئ؛ كان من المفترض أن أولد في زمن الرومانسية، في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي»، وكلما قلت لهم ذلك يبدأ الهمز واللمز بينهم، لذا كنت أكتفي بالاستماع إلى مغامراتهم النسائية دون التورط والتعليق عليها، فكيف سيكون حالي معهم إن أخبرتهم بقصتي ومدى حيرتي!

وما زلتُ أجهل إلى الآن مِن أين أتتني الجرأة لأنطق بهذه الكلمة صـراحةً! «أحبِّك»، وكيف أمكنني التغلُّب على كلّ العقبات والحواجز الموجودة داخلي؟ لكنْ لا يمكن

تفسير ذلك إلا بشكلٍ واحد، فرضية واحدة فقط، إنه الحبّ، به ومعه فقط تنتهي كل المسلّمات التي يفَترض أن يحكمها العقل.

كان قد مرّ عليّ أكثر مِن ثلاثة أسابيع دون أن أتصل بها، ورغم أننا لم نعد نتواصل بشكلٍ يوميٍّ عبْر الهاتف، منذ عودتي من الإجازة إلى مقر عملي، إلا أنّ المدّة التي تفصلُ بين كل اتصال وآخر لم تكن تتجاوز الأسبوع بأيّ حال من الأحوال، لكنني لم أستطع الاتصال بها رغمًا عنّي على مدار عشرين يومًا؛ لم يكن يوجد هاتف في القرية بأكملها، والتي أقمتُ فيها إلى جوار مدرستي حيث أعمل.

والمدرسة بدورها عبارة عن مبنى قديم آيل للسقوط، مكوَّن من طابقين، يحتوي على عشرة فصول فقط، وإلى جواره مبنى آخر، عبارة عن هيكل خرساني، يعلو على ارتفاع خمسة طوابق، من المفترض أن يصبح مقر المدرسة الجديد بعد الانتهاء منه، وقبل أن ينتهي الحال بالمبنى القديم بالسقوط على رؤوس الطلبة والمدرسين، لكن ونتيجة لنقص الميزانية تم إيقاف أعمال الإنشاءات، وفي كل سنة مالية يتم تأجيل العمل به للميزانية التالية؛ ليبق على حاله، هيكل خرساني، مجرد سقوف وأعمدة. وهو ما يعني أنه عليّ الذهاب إلى قرية مجاورة إذا أردتُ الاتصال؛ حيث المقسم العمومي، كانت قرية كبيرة، أشبه ما تكون بمركز، يضم في نواحيه عدد كبير من القرى الصغيرة، ومنها القرية التي تقع فيها المدرسة، وكان عليّ أن أسلك طريقًا رملية متعرجة، تمتدُّ إلى زهاء أربعة كيلو مترات وسط أشجار النخيل، التي تنتشر في ربوع الواحة، وتعطيها ذلك اللون الأخضر، الذي يمتد أمام الناظر إلى الأفق البعيد، غالبًا ما كنتُ أقطعها مشيًا على الأقدام، أو عليّ الانتظار حتى قدوم سيارة تقلّني، والسيارات هنا قليلة إن لم تكن نادرة، وغالبًا ما كان يقلّني أحد المارّة في طريقِه ذهابًا أو إيابًا بعربتِه «الكارو»، كانت القرية تفتقر لأدنى الخدمات، كانت منسية كغيرها من القرى المنتشرة في ربوع مصر.

ولا يختلف حالها كثيرًا عن قريتي، حيث مسقط رأسي، وكل الخدمات فيها قامت بمجهوداتنا الذاتية، بدءًا من الكهرباء، التي أخبرني جدي أنه باع ذهب جدتي في سبعينات القرن الماضي؛ لسداد حصته في تكاليف إدخالها للقرية، الذي توافق مع موسم حصاد القطن، حيث دفع أغلب أهل القرية -ومعظمهم من المزارعين- ما استحق عليهم من أموال من ثمن المحصول.

وقس على ذلك شبكتي المياه والصرف الصحي، وحتى عندما تذكرتنا الدولة -التي لا يتذكرنا رجالها إلا وقت الانتخابات- وقررت تجديد شبكة المياه، رفض عمال الشركة -ومنهم أحد أبناء القرية- العمل دون الحصول على مبلغ من المال فرض على كل

منزل، لن نقول إنه «إتاوة»، سنستخدم اللفظ الذي استخدمه العمال «إكرامية».

واضطررنا أن ندفع، «ولماذا لا نقدم شكوى؟» قلت لجدي.

«يا بني، الشكوى لغير الله مذلة»، أجاب، قبل أن يكمل: «من سنشتكي؟! ولمن؟! الفساد صار سمة العصر، التي انتشرت في كل مكان، من سنلاحق، الضابط أم الطبيب؟! المهندس أم المدرس؟! الخباز أم القصاب؟! أم...؟! أم...؟! أم....؟! القائمة تطول ولا تنتهي؛ إذا أردت أن تحارب الفساد ابدأ برأس الهرم وهو أمر لا طاقة لنا به». رحمك الله يا جدي؛ كم كنت حكيمًا؟!

لم أكن أملك الوقت اللازم للنزول إلى القرية المجاورة والاتصال بها، أو حتى الاتصال بوالدتي وشقيقتي كما اعتدت مساء كل خميس؛ انشغلتُ رغمًا عنّي في فترة الإعداد والمراقبة على الامتحانات الفصلية؛ فكنتُ أقضي الجزء الأوّل مِن يومي في المُراقبة على الطلاب داخل إحدى اللجان، بينما ما تبقّى مِن يومي أقضيه في تصحيح أوراق الإجابات، والتي كنّا ننتهي منها مع قدوم المساء، لكنّ يومي لم يكن لينتهي عند هذه المرحلة؛ يبقى جزء أخير هو الأصعب مِن يومي، والأثقل على قلبي في آنٍ واحد... الدُّروس الخصوصية.

ولكن لم يكن أمامي مِن خَيارٍ آخر سوى التعاطي معها، وحنثي بذلك العهد الذي أخذتُهُ على نفسي في فترة مبكِّرة ألّا أقربها تحت أى ظرف، مدرِّس بالحصّة، هكذا عُيِّنْت، على أمل أن يتحوّل التعيين إلى تعاقُدٍ سنويّ، ثم يكون التثبيت في الوظيفة في نهاية المطاف، والمُقابل جنيهات قليلة، لم يكن مجموعها في آخر كل شهر يكفي مواصلاتي مرة واحدة ذهابًا وإيابًا من وإلى واحة سيوة حيث عُيِّنت.

ولولا عزوف المدرِّسين عن الذهاب والعمل في الأماكن البعيدة، وفي القلب منها الواحات، وعلى رأسها سيوة، لما تمكَّنتُ مِن الحصول على وظيفة مُدرِّس بالحصّة، ولا ينفي الأمر أنني احتجتُ إلى بعض الوساطات، والتي أفلحَت إحداها في إحضار تأشيرة وكيل وزارة التربية والتعليم؛ لكوني ابنًا لشهيد.

وهو ما يعني أنّ ذهابي وإيابي مِن وإلى الواحة يكون مرّتين فقط في العام، الأولى تبدأ مع بداية العام الدراسي وتنتهي ببداية الإجازة الفصليّة، والتي تمتد لأسبوعين، ولا مانع إن جارت إجازتي على الأسبوع الأول من الدراسة، أمّا المرّة الثانية فتبدأ مع بداية الفصل الدراسي الثاني، وتنتهي مع بداية الإجازة الصيفيّة، وعندها تبدأ فترة إجازتي الحقيقية، وأعود لقضائها مع أسرتي، لكن كان لها جانب سيء، فمع

توقف الدراسة أفقد راتبي كمدرس؛ حيث أن عملي مدرس بالحصة، ولا تحتسب فترة الإجازة، وهو ما يعني دخولي في فترة من البطالة المقنعة، تمتد لشهور الإجازة الثلاث، أضطر معها للبحث عن عمل، وغالبًا ما أحصل على لقب بائع خلالها، والذي يكون في أحد محال الملابس أو بيع العصائر.

ما أزال ألامس ذلك الإحساس الذي تملّكني بالضياع؛ حينما بدأت السيارة تشقّ طريقها وسط الصحراء في سفرتي الأولى، طوال ساعات لم يكن هناك سوى لون واحد هو اللون الأصفر، والذي يحيط بنا من كلّ مكان، على اليمين واليسار، أمام السيارة وخلفها، لا شيء سوى اللون الأصفر، الذي لا يشق صفرته سوى شريط أسود ممتد، هو جسد الطريق، الذي كلح لونه؛ بفعل لهيب الشمس المحرقة، ومن كثرة ما طبعت عليها عجلات السيارات بصماتها، في عمليات الذهاب والإياب.

كما كان هناك عدد من البحيرات الصغيرة على امتداد بصري، تحيط بنا من مختلف الجهات، خيِّل لي أننا سندرك إحداها في مرحلةٍ ما، وبت أترقب حدوث ذلك، لكنه ما لم يحدث، إلى أنْ اكتشفتُ أخيرًا أنّ بصري قد خدعني وأن ما أراه ليس سوى سراب، مجرّد وهم، (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)، وأنه مهما حاولتُ اللحاقَ به لن أستطيع، لكن ما أزعجني أكثر، ذلك الإحساس الذي خامرني، وبدأ يتبلور داخلي على شكل سؤال، هل يمكن أنْ تكونَ رحلتي خلف الوظيفة الحكوميّة، والتي مكّنتني من العمل بشهادتي مجرّد سراب هي الأخرى؟! وهو السؤال الذي لم أتمكن من الإجابة عليه؛ وقررت تركه للزمن لتقرير مصيره.

لكنّ ذلك اللون الأصفر سرعان ما انتهى وانقشع وبدأ اللون الأخضر يحل محله ويستقبلنا على مشارف الواحة مُرحبًا بالقادمين؛ ليبعث داخلي بريق الأمل من جديد، كانت أشجار النخيل تتعالى معانقة عنان السماء في شموخ، وكأنها تحرس أرض الواحة من رمال الصحراء، التي تحاول جاهدة أن تغزوها من كل الجهات.

***

«الفساد صار سمة العصر»، رحمك الله يا جدي ولكلماتك الخلود، الحمد لله أنك رحلت قبل أن تراني ترس في منظومة الفساد، ولكن لم يكن بيدي حيلة، ولم يكن أمامي من خيار آخر سوى التعاطي مع الدروس الخصوصية رغم مقتي لها، كنتُ بيْن نارين: مبادئي التي ترفضها من ناحية؛ لما تُلقيه من عبءٍ عليّ، وذلك كلما امتدّت يدي لالتقاط تلك الجنيهات التي يقدمها لي أحد تلامذتي، كنتُ أتذكّر والدتي

حينما كنتُ أتناول منها في الماضي تلك الجنيهات التي اقتطعَتْها من معاش والدي؛ لأعطيها بدَوْري لأحد أساتذتي، وما كان يلقيه ذلك من أعباء على الأسرة بأكملها لم تكن لتنتهي، لكنْ ما لم يَدُر في مخيّلتي أنني سأصبح في يوم من الأيام واحدًا منهم، وأن رسالتي كمعلم ستصبح وسيلة للتكسُّب واستغلال غيري.

لكنْ، ومن ناحية أخرى، لم يكن بإمكاني العودة من حيث أتيت بخفّي حنين، كان الأمرُ ذنبًا يمكنني احتماله، مقارنةً بما أشعر به حينما تمتدّ يدي لتناوُل مصروفي الشّخصي من والدتي، وكأنني لم أكبر، ولم أتخرَّج من الجامعة، ولم أتوظّف، وتستمرّ بي الحال عبئًا عليها، بدلًا من أنْ أكون سندًا لها، وأساعدها في حمْل أعباء الحياة، أو على الأقَلّ أعفيها من مسؤليّتي التي تحمّلتها منذ صغري، وهكذا وقعتُ فريسةً لاحتياجاتي.

وما إن أنتهي من تدريس تلاميذي في الدّروس الخاصّة مساءً حتى يكون الوقت قد تأخّر، وهكذا توالى انصرام الأيام على النَّمَط نفسه، دون أن أمتلك الوقت للذهاب للقرية والاتصال بأي أحد.

وبمجرّد أنْ انتهى اليوم الأخير من الامتحانات حتى حزمتُ أمتعتي وقرَّرْتُ السَّفر، لم أنتظر لساعة واحدة، وقبل صعودي إلى السيارة التي ستقلّني إلى مدينة مرسى مطروح قرَّرْتُ الاتصال بها أولًا، لكنها لم تُجِب على اتصالي، فكرَّرتُ الاتصال مرّة ثانية وثالثة، لكنني لم أجْنِ سوى الفشل، وفي كلّ محطّة على امتداد الطريق يتوفّر بها هاتف كنتُ أحاول الاتصال بها، اتصلتُ بها من مطروح ومن الإسكندرية، ومن اثنتين من الاستراحات التي مررنا بها لكنَّني لم أتَلَقَّ أيّ إجابة.

شغل الأمر تفكيري كثيرًا؛ ورحت أتساءل لا بُدّ وأنها في المنزل، إذًا لماذا لا تجيب؟ أتكون قد تعمَّدَت أن تلقي بي في أتون فكري المستعر؛ لأنني لم أتصل بها طوال المدّة الماضية؟ من الممكن؛ أنا أعرفها جيدًا حينما تغضب من أحد، تكون كالطفلة حينما تمتعض، وتحطم كل ما يعترض طريقها، دون أن تكترث لشيء، أو تقدر عواقبه، لكنها أيضًا سرعان ما تنسى وتعود لطبيعتها بشكل حثيث.

لكن أيكون اتصالي المستمرّ هو السَّبب؟ أتكون قد حدَثَت مشكلة من نوع ما بسبب ذلك؟ لا بدّ وأنه والدها، أو ربما شقيقها، من المؤكد أنه هو، يمكنني تخيل نفسي في ذات موقفه، أكتشف أن شقيقتي تكلم أحد الشباب، لا بد وأنني سأقيم الدنيا ولن أعيدها لموقعها مرة ثانية، هو لا يعلم أنني أحبها، لا بد وأنه يعتقد أنني أتسلى بها؛ وإلا لماذا لم أضع علاقتنا في مسارها الصحيح، خطوبة فزواج، إلخ، هو لا

شأن له بظروف، لكن إن كان هناك مشكلة مِن هذا النوع لا بدّ وأنني كنتُ سأعلم بها؛ خاصة وأنني سأكون وقتَها المسبِّب لها.

قرَّرتُ أن أجرِّب حظّي لمرة أخيرة وأن أتصل بها، كنتُ قد وصلتُ إلى مدينتي «دمنهور» وقبل أن تفتك بي هواجسي، دخلت لأقرب محل اتصالات، أعطيت الرقم لعامل المقسم على ورقة، توجهت بعدها إلى كبيرة الاتصال ورفعت السماعة وبدأتُ أتابع صلصلة الهاتف على الجانب الآخر، وصداه يعود ويتردّد داخلي؛ فينتفض قلبي فزعًا بين ضلوعي، التي تحكم من قبضتها عليه؛ مخافة أن يضل طريقه ويهوي على الأرض بين قدمي إلى أنْ فقدتُ الأمل، وكدتُ أنهي المكالمة، لكنّها أخيرًا أجابَتْ، وبدأ صوتها يروي نفسي الظمأى مِن الشّوْق، وقبل أن أنطق بكلمة واحدة بادرتني قائلة:

- «كنتُ أعلم أنكَ المتّصل، وقرّرتُ ألّا أجيب عليك، وألّا أتحدّث إليكَ ثانية، لكنّ قلبي لم يطاوعني».

تراقص قلبي فرحًا لسماع صوتها، رغم لهجة العتاب التي بَدَت واضحة في كلماتها؛ وحطم قفصي الصدري، الذي كان يطبق عليه؛ وحلق بعيدًا في الفضاء الواسع بين الطيور في السماء، التي انتحت جانبًا؛ لتفسح له المجال يحلق كيفما شاء، تظاهرتُ بجهلي بالسّبب، وفي دهشة مصطنَعَة سألتها، وبكلّ براءة:

- «لماذا؟ لا أذكر أنني فعلتُ شيئًا يستحقُّ غضبكِ منّي لهذه الدرجة؟»

- «هل حقًّا تجهَل السّبَب؟ أم إنكَ تُراوغ؟»

قرَّرتُ أن ألوذ بصمتي مِن عتابها:

- «كلّ هذه المدّة دون أن تتّصل بي؟» أكمَلَتْ.

وهنا قرَّرتُ المراوغة قليلًا، وأجبتُ قائلًا:

- «ما أعرفه جيدًا، أنني لا أقوى على غضبِك منّي».

صمتَتْ فجأة وكأنها ابتلعت لسانها، وتدريجيًا بدأت حدَّتها في الكلام تختفي، وباغتتني قائلة في شيء من الدلال:

- «لماذا؟»

- «ألا تعلمين حقًا؟»

- «ما الذي أعلمه؟»

ولم أجد أمامي مِن خيار سوى الاعتراف لها بمشاعري صـراحةً، والتي لم تكُن تجهلها، ومع أنّ كلّ جوارحي كانت تنطق بها، «أحبك، أحبك، أحبك...»، إلا أنني تلعثمتُ، جفت كلماتي وغاضت أحرفي؛ وعجِز لساني عن نطقها، ويبدو أنّها أدرَكَتْ ذلك، وفي محاولة منها لتشجيعي قالت:

-«أما تزال تتحاشى قولها؟ أم إنك لستَ واثقًا منها؟»

وفجأة انحلَّت عقدة لساني، وبدَأَتْ الكلمات تتدافع للخروج مِن فمي.

- «لأني أحبك... نعم أحبك، ومنذ أول يوم التقيتكِ فيه، ومع أوّل نظرة وقع فيها بصـري عليكِ، أدركتُ أنكِ الحبيبة التي طالما انتظرتُها، وكنتُ واثقًا أنني سألتقيها، لكنني لم أكن أعلم أين؟ ومتى يكون اللقاء؟ كنتُ واثقًا مِن ذلك، رغم عدم وجود دليل واحد بين يديّ يدلّ على ذلك. صمتَتْ، وطال صمتُها، انتظرتُ أن تعلّق على كلامي، لكنّها لم تجِب، طال انتظاري حتى إنني اعتقدتُ أنّ هناك خطأ ما، وأنها لم تسمَع ما قلته، وتوالت نداءاتي عبْر الهاتف دون أن تجيب، وأخيرًا قالت:

- «وأنا أيضًا».

- «أنتِ ما تزالي هنا؟ وأنتِ ماذا؟»

- «وأنا أيضًا كذلك... أحبُّكَ».

بَعْدَ ذلِك

وأخيرًا خرَجَتْ قصّتنا إلى النور، وبدأت تسلك طريقها على درب الحبّ، اعتقدت أن أصعب ما في قصتنا قد مر، وأن القادم أفضل بكثير، غير مدرك بما تخبئه لنا الأيام، وغير مكترث به.

اتفقنا معًا على أن تمنحني عامًا واحدًا أستعد خلاله؛ أتقدَّم بعدها لخطبتها بشكل رسميّ، وإن أخلَّتْ هي باتفاقنا؛ وفي أول اتصال مع شقيقتي ألمَّحَتْ لها بما يكنّهَ كلّ منّا للآخر، بعد أن أخبرتها أنني دائم الاتصال بها؛ وهو ما أخضعني لاستجواب مفصل منها، لا أنكر أنّ تصرفها كان مفاجئًا لي، لكنّه أثار إعجابي في الوقت نفسه؛ لم يكن لديَّ ما أخجل منه أو أحاول إخفائه، أخبرتُ شقيقتي بكلّ شيء، وما اتفقنا عليه، منذ أن التقينا في ذلك العرس وتعارفنا، مرورًا باتصالاتنا المتبادلة، وانتهاءً بمصارحة كل منا الآخر.

أمّا هي فلم أعاتبها، حتى إنني لم أذكر الموضوع أمامها، وعندما سألتني: «هل أخبر والدتي؟!» لم أتردّد للحظة واحدة وأجبت بالموافقة، وإن كنتُ أعتقد أنها أخبرتها بكلّ شيء مسبقًا.

سارت الأمور على نحوٍ جيّد، بل كانت رائعة، لكنها بدأت تسير على درب مغاير، لا أدري كيف؟ ولماذا حدث ذلك؟ بدأ الفتور يسري في علاقتنا، دون سببٍ واضح، وبدأتُ أفقد ذلك الإحساس الذي كنتُ أشعر به نحوها تدريجيًّا؛ بعد أن بدأت كلماتها تضلّ طريقها إلى قلبي الذي لم تكن تخطئ طريقها إليه مطلقًا.

ألقيتُ باللائمة على نفسي في فتور علاقتنا، «لا بد وأنني هو السبب»، قلت لنفسي؛ ربما لأنني لا أمتلك المقدرة اللازمة للتعبير لها عن مكنون مشاعري بالشكل الذي تتوقعه مني، لكنني لستُ وحيدًا في ذلك، فمعظم الرجال هم كذلك، ومنذ متى كان التعبير عن الحب يُقاس بالكلمات؟ وما نراه في الأفلام لم يكن يومًا مِن الواقع؛ نحن لا نعيش أحداث رواية رومانسية لكاتب مبدع، يجيد نسج الكلمات، وتسليط الضوء على جانب واحد من حياة متعددة الجوانب.

كما إنها رغم شكواها لم تكن هي أيضًا بارعة في التعبير عن هذا الحبّ، مثلما يحدث في الدراما الرومانسية أو الأفلام العاطفية، ومع ذلك لم أتذمّر، ولم أتحوّل إلى ذلك الشخص الانتقادي مثلها، كنتُ أتلمّس مشاعرها في كلّ كلمة تنطق بها، في كلّ خلجة وتنهيدة، ولا أنكر أنني حاولتُ جاهدًا التغيير مِن نفسي، وتخطّي تحفّظي،

وأنْ أعبِّر لها عن مكنون الحبّ الساكن بين ضلوعي، وفق مفهومها الدرامي.

لكنّ المسافات أخذت تزداد بيننا؛ وبدأت مشاعرنا في التباعد أكثر فأكثر، في الماضي وبمجرّد شروعي في الاتصال بها كانت تجيب على الهاتف متلهفة، وكأنها لا تفعل شيء سوى انتظار مكالمتي، رغم أنه لم يكن لها موعد محدّد، أحيانًا كنت اتصل بها، أو تتصل هي بي في الصباح الباكر، وأحيانًا أخرى ظهرًا أو عصرًا، وإن كان أغلب مكالماتنا تكون في المساء، حينما أجلس في ضوء القمر؛ حتى أتمكن من رؤية انعكاس وجهها فيه أثناء حديثنا، والتي بدأتْ تأخذ توقيتات مُحددة، بعد أن أصبح كل منّا على اطّلاع بأدقّ التفاصيل في حياة الآخر، لكنها بدأت تتأخر في الإجابة، أحيانًا تجيب وأحيانًا أخرى لا تجيب.

بدأت الظنون تتلاعب برأسي، لكنني قررتُ تجاهلها، ورحت أحدث نفسي: «لا بدّ وأنها الشوائب التي تنتج عن انصهار نفسينا في نفسٍ واحدة». لكنّ تذمّرها وانتقادها تحوّل إلى نوع من اللا مبالاة؛ وبدأت تتحدّث معي بشكل من الفتور، وحينما أسألها عن السّبب تكون إجابتها المُعتادة، والتي مللتُ سماعها: «لا شيء، مجرّد صداع عابر أشعر به». لكن ذلك الشيطان اللعين الموجود داخلي يوسوس قائلًا: «أفي كلّ مرّة أتحدّث فيها إليها تعاني ذلك الصداع القاتل؟!» ومع ذلك قرّرتُ تصديقها، وتناسيت هواجسي ورجمت شيطاني، على الأقلّ حتى يثبت لي عكس ذلك.

وعلى مدار أشهر مرت على كأعوام استمرّت حالنا على الشاكلة ذاتها؛ حتى بدأتُ أتململ، وصارت علاقتنا عبئًا عليّ عجزتُ عن وضع حدٍّ له، مِن ناحية؛ حبّي لها وارتباطي بها، الذي ازداد مع الوقت، ومن ناحيةٍ أخرى؛ أنّ لا شيء ملموس أستخدمه كقرينة عليها، اتهمها بالخيانة وأصلبها على أثره، لكنْ كان بإمكاني أن ألمَح بوضوح ذلك البركان الذي يغلي باطنه داخلي، وسرعان ما سينفجر؛ ويبلغ فورانه عنان السماء، كان ما أخشاه أن نصل إلى تلك المرحلة التي نعجز فيها عن مواصلة التقدُّم للأمام.

لم يعد حديثنا يخرج عن أمرٍ واحد، وهو أين سنقيم بعد الزواج؟ وصار هذا الأمر مصدرًا لكل المشكلات التي عانيناً منها، لكنني كنتُ واضحًا معها منذ البداية، لم أخدعها ولم أتلاعب بالحقائق أو أزيفها، نويتُ أن أتقدَّم لحجز إحدى شقق وزارة الإسكان، أو تلك التي تنشئها المحافظة، وهكذا اتفقنا، وفي حال عدم تمكّني من القيام بذلك سنقيم في منزل والدتي.

كان المنزل مكوّن من طابق واحد، ينقسم إلى شقتين، تحتوي كل منهما على غرفتين، تفصل بينهما صالة صغيرة، يستقر بها طقم مكون من ثلاث آرائك، نستقبل فيها الضيوف، بالإضافة لمطبخ وحمام، ورثناه عن جدّي لأبي، وبعد استشهاد والدي مباشرة كتب جدي المنزل باسم والدتي؛ حتى يطمئنّ على مستقبلي أنا وشقيقتي، كان المنزل يقع في شارع، يفضي إلى شارع آخر، يقع كلاهما في حارة من حواري المدينة، كانت في الأصل واحدة من القرى المترامية على حدودها، قبل أن يمتد العمران بينهما؛ ويصبح كلاهما امتداد للآخر، وإن حافظت على مسماها وتوصيفها بـ «العزبة»، كما حافظت على حظها الوافر من الإهمال من جانب الدولة، وحينما يذكرنا الإعلام، ويسلط الضوء على مشاكلنا، لا يجد لنا سوى وصف «العشوائيات» وقاطنيها.

عُمْر المنطقة بأكملها لا يزيد عن السبعين عامًا، لكنها آخذة في التضخم والتمدد على حساب الحيِّز الأخضر الذي كان يمتدّ في يوم من الأيام على أرض الحارة، ولا يحتاج البناء فيها لأيّ تصاريح؛ كل ما عليكَ فعله هو شراء قطعة الأرض والبناء، ومسألة الشراء هذه تحتاج إلى سنوات من الادخار أو الاغتراب، وحينما يصبح المنزل أمرًا واقعيًّا تتحوّل المسألة لمجرّد قضية برقم داخل أحد السجلّات، يستطيع محامي حديث التخرُّج إنهاءها في جلستين أو ثلاث في أروقة المحكمة، لينتهي الأمر بغرامة ماليّة تصمت الدولة في مقابلها.

ومع ذلك وفي كلّ الحالات لم أكن لأترك والدتي تعيش بمفردها، خاصّة بعد زواج شقيقتي؛ لم يكن من الإنصاف تركها بعد أن أفنَت شبابها في تربيتي وشقيقتي، بعد وفاة والدي، أو بالأحرى استشهاده على الحدود مع العدوّ الذي أصبح بين عشية وضحاها صديقًا له كل الحقوق، وليس عليه من واجباته شيء، وكلّ ما حصَلَتْ عليه هو لقب أرملة شهيد، وذنبه الوحيد أنه لبّى نداء الوطن، وترك زوجته بعد أسابيع قليلة من زواجه، لأداء الخدمة العسكريّة.

ولم يكن إلى جوارها بسبب أداء واجبه حينما أنجَبَت طفله الأوّل، الذي هو أنا، كما لم يكن يدور في مخيّلته أنّ رصاصة غادرة ستسلبه أغلى ما يملك، وهو حياته قبل أيّام قليلة من تسريحه، ودون أن يدري أحد أنه قد نثَرَ بذرة في رحم زوجته ستثمر طفلة، لن يُكتَب له رؤيتها.

فوجئوا باتصال من قائد كتيبته في أحد الأيام؛ يزف إليهم نبأ استشهاد ابنهم البطل، الذي قدم حياته ثمنًا لمصر، وأصر أن يقدم واجب العزاء لوالدتي عبر الهاتف، صرخت فيه: «كيف يمكن أن يموت؟! ألم تخبرونا بانتهاء الحرب؟! ألم تجبرونا على القبول

بـ»كامب ديفيد»؟!» أعاد تقديم واجب العزاء قبل أن ينهي المكالمة؛ لتظل أسئلتها معلقة في الهواء، تبحث عن إجابة.

وبعد ساعات قدمت سيارة عسكرية مكشوفة، تحمل جثمانه المغطى بالعلم، سارت في مقدم الجنازة، يتبعها عدد من رفاقه في السلاح ببزاتهم العسكرية، أدوا له التحية، وأطلقوا واحد وعشرين طلقة في الهواء، بعد أن واروا جثمانه الثرى، رحلوا بعدها، تاركين الحزن يأكل قلبيّ زوجته وأبيه.

والتوصيف «حادث خطأ في إطلاق النار»، حتى الاعتذار لم يقدَّم مِن المحتلّ الصهيوني، لم تكن الدولة تتذكّرنا إلا كلّ عدّة سنوات في إحدى المناسبات الوطنية، يبدأ الحفل دائمًا بخطبة عصماء لأحد المسؤولين، وينتهي بتسليم والدتي شهادة تقدير، تحمل اسم والدي مع آخرين، منهم من قدم الابن، الزوج، أو الشقيق، بالإضافة لشهادة استثمار ببضع مئات مِن الجنيهات، ودائمًا ما ينتهي الحفل بالتقاط بعض الصُّوَر، التي تَنْشر إحداها بعض الصُّحف.

كرَّسَت والدتي حياتها مِن أجلي وشقيقتي، عاشت على أمل واحد، أن تسترجع حقّ والدي الشهيد، لكن لم يكن هناك مَن يُطالب به غيرها، كان الجميع مِن حولها يتهامسون بأنه حقٌّ ضائعٌ لن يعود، في البداية تحاشوا إخبارها بذلك، لكنهم سرعان ما ضجروا مِن إصرارها، وخطابات الشكوى والمناشدة، التي راحت ترسلها للجميع، رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء، رئيسي مجلسي الشعب والشورى، وزير الدفاع ورئيس أركانه، ...، دون أن تتلقى ردًا شافيًا.

وراحوا يصرحون بآرائهم أمامها، رفَضَتْها، وقاطَعَت كلّ مَن خالفها الرأي، لكنْ بمرور الوقت وتسلّل اليأس إليها سلّمت بالأمر الواقع، وأصبح جوابها الوحيد على الجميع: «في يومٍ ما سيعود حقّ الشهيد الضائع»، قبل أن تكمل: «ما ضاع حق وراءه مطالب».

***

كان فتْح باب الحجز لشقق وزارة الإسكان أو تلك التي تُنشئها المحافظة نادرًا، وحينما أعلم بفتحِهِ يكون التقديم إليها قد انتهى، وهو ما يعني أنه كان عليّ متابعة السؤال وتقصي الأخبار بشكلٍ مستمرّ، حتى إنه لم يكن يمرّ أسبوع دون أن أذهب أو أرسل شقيقتي نيابةً عنّي وأحيانًا والدتي، في حال عدم تمكني مِن الذهاب، حتى إنّ الموظّف المختصّ سواء في وزارة الإسكان، أو في الوحدة المحليّة، كانا يعرفانا

جيّدًا، ولم نكن نسمع منهما سوى إجابة واحدة في كل مرة: «ليس بعد».

وفي المرات القليلة التي فتح فيها باب الحجز يكون عليّ شراء كراسة الشروط، والتي يرفض الموظفون التصريح بمحتواها؛ لإجباري على شرائها، ويظلّ محتواها مبهمًا حتى أدفع الجنيهات الخمسين، لكن سرعان ما أكتشف الحقيقة، الأمر ليس أكثر من مجرّد خدعة، تختلف شروط الحجز في كلّ مرّة، لكن مضمونها واحد، أنه يلزَمُكَ امتلاك بضْع عشرات مِن الألوف حتى تتمكّن مِن تنفيذها.

وهو ما يعني أنني كشاب حديث التخرج، من أسرة متوسطة الحال، لست من الشريحة المستهدفة، وحتى هذه الشقق أو قِطع الأراضي التي يتمّ طرحها للبيع والبناء عليها تكون بالعشرات، في حين تكون نسب المتقدمين بالآلاف، كما وأنني، وإن كنتُ أمتلك مثل هذا المبلغ المالي الكبير ما الذي يدفعني لانتظار فتح باب التقديم، الذي غالبًا لا يتمّ سوى مرّة واحدة كلّ عام أو اثنين.

ورغم علمي بكلّ ذلك إلا أنني وفي كلّ مرّة كنتُ أشتري كراسة الشروط؛ على أمل أن يكون الحجز حقيقي، وأن يصدق هؤلاء المسؤولون، الذين صدعوا رؤوسنا، ولو لمرّة واحدة، ولا يكفّون عن الحديث في الفضائيات عن خطط خمسية وعشريّة، وإحصاءات عن بناء عشرات الآلاف مِن المساكن، ولكنْ أينَ هي؟

السنوات تنصرم مِن عمري تباعًا دون أن أبدأ حياتي، ما حاجتي أنا لبيتٍ بحريٍّ في الساحل الشمالي؟ من تلك التي يتفاخرون بإنشائها لقضاء العطلة الصيفية؟! ربما يكونون مصيبين في حالة واحدة إذا كنتُ أفكّر في التصييف أولًا، ثم يمكنني بعدها التفكير في الزواج وإنشاء أسرة.

ورغم أنني لم أدّخر جهدًا في البحث، وشراء كراسات الشروط، والتقديم بعد ذلك، وحتى قبل أن أتعرف إليها بسنوات، إلا أنها بدأت تتشكّك فيما أبذله من مجهود، وكأنني خدعتها أو غرّرتُ بها حول حقيقة أوضاعي الماديّة مِن البداية، والتي وافَقَتْ عليها دون أيّ تردُّد، رغم أنني أمهلتُها الفرصة اللازمة للتفكير.

لكن التردُّد بدأ يكسو كلماتها، لينعكس على مشاعرها وكأنها صارت إنسانة أخرى، غير تلك التي أحببت، تشبهها في الشكل، لكنها تخالفها في التصرفات، وكأن هناك من يفكر بالنيابة عنها، لم يعُد لنا من حديث يخرج عن عدد من المفردات.

-»والدتي ترى...«

- «والدتي تقول...»

- «والدتي توافق...»

- «والدتي ترفض...»

وكأنني مقبل على الارتباط لوالديها، لا الارتباط بها هي.

أخذَتْ اتصالاتنا في التباعُد؛ لم نعُد نجد ما نتحدَّث بخصوصه، وحينما تتحدّث يكون الخلاف، وفي كلّ مرّة يكون هناك سبب جديد له، فبالإضافة إلى موافقات والدتها واعتراضاتها، أصبح لدينا الكثير من الوقت نقضيه في الحديث عن هذا العريس أو ذاك، الذي تقدم أو ينوي التقدم لخطبتها، وتظطر لرفضهم جميعًا لأجلي، رغم أنني لم أتخذ أي خطوة نحو الارتباط الرسمي -حسبما يتضمنه كلامها من تلميحات- وكأنها تناست فجأة ما اتفقنا عليه، أو أنني اتفقت مع شخص آخر سواها.

حتى أصبح الأمر مُبالغًا فيه، وكأنه لا يوجد فتاة غيرها في هذا الكون، بحيث لا يمرّ أسبوع دون أن يتقدّم لها أحد الخاطبين.

أدركتُ من الوهلة الأولى أنها تحاول الضغط عليّ، شعرتُ بها تبتزّني، حتى أصبح حبّي لها عبئًا ثقيلًا على نفسي؛ تمنيت في بعض اللحظات الخلاص منه، وتمزيق العهود التي كتبناها، وحينما تلحظ تبرُّمي تطالبني بعدم الاكتراث، وأن أعتمد على ثقتي فيها، ولكنْ إن كانت تطالبني فعلًا ألّا أكترث، لماذا تُعاود الحديث عن الموضوع نفسه مجدَّدًا في كلّ مرّة نتحدّث فيها معًا؟ ثم تطالبني ألّا أكترث! وحينما أعجز عن الإجابة على تساؤلي، يطل شيطاني قائلًا: «أنت أدري بالإجابة لكنك تدعي الجهل بها»، ولم أستطع رجمه هذه المرة، كان كلامه منطقي.

حتى بدا لي أنها ترغبني وترهبني في آنٍ واحد، تقترب مني وفي الوقت ذاته تهددني بالابتعاد وخسارتها؛ قرَّرتُ أن أضع حدًّا لذلك الصراع الذي يعتمل داخلي، حتى وإن كان بنهاية ما بيننا للأبد، لم أعُد أحتمل ذلك الصراع النفسي الرهيب؛ والذي بدأ يؤثر سلبًا على كل حياتي، فأصبح أقلّ تصرف مِن الأشخاص المحيطين بي -مهما بدا بسيطًا- كفيلًا بإثارة غضبي، بداعٍ أو بغيرِه، حتى بدأ الجميع في تجنُّبي.

لم يبقَ في جعبتي سوى سهم أخير قرّرتُ اختبارها به، أخبرتُها مجدَّدًا عن حقيقة موقفي المالي، لكنْ هذه المرّة بتفصيل أكثر، ما أجنيه وما أدّخره، وما أتوقّع تحصيله، وكلّ ما كنتُ أطمع فيه أن تُمْسِك بيدي وألا تفلتها، بعدها سأكون

مستعدًّا لمحاربة العالم لأجلها، لأجلها هي فقط، لكن كان عليها أولًا أنْ تُثبت لي أنها ما تزال متمسِّكة بي إلى النهاية، وأنها لن تتخلى عنّي مستقبلًا، وإنْ كان علينا أن نفترق فليكن الآن، ستكون جراحنا مهما كبرت قليلة تطيب مع الزمن، بدلًا مِن أن يحدث ذلك في الغد، ويترك جرحًا غائرًا يصعب مداواته.

أخبرتُها عن الآلاف الخمسة عشـر التي أدّخرها، تفاجأت مِن حجم المبلغ، ليس لكبره، لكنْ لأنّها اعتقدَت أنني أدّخر أضعافه حسب قولها، وقرّرتُ إمهالها بعض الوقت؛ حتى أقف مِن تصـرفاتها على حقيقة موقفها، وإن كانت تحبّني فعلًا أم إنها... لا أستطيع حتى مجرّد التفكير في الأمر، هل يمكن أن أكون فعلًا مجرّد تذكرة خروج لها مِن منزل والديها؟

وكل البنات يحلمن بذلك اليوم، ويتحرقن شوقًا لنيل حريتهن، والتخلص من قيود الأهل، وهو ما يدفع بعضهن للتسرع في سبيل الحصول على هذه الاستقلالية، والقبول بأول عريس، وإذا لم تسير الأمور وفق أحلامهن، يبدأن في البحث عن فرصة أخرى، عريس آخر، مجرد التفكير في الأمر يصيبني بالغثيان ولكن لماذا أفترض السيء؟! أم أنني شخص متشائم بطبعه؟! وربما صرت كذلك من كثرة ما لاقيته من خذلان، المزيد من الأسئلة، الكثير من الهواجس والظنون، وكالمعتاد لا أملك سوى تركها للأيام؛ لإثبات صحتها من عدمه.

لكنّ الأقدار رأفت بحالي، وأبت أن تتركني نهبًا لفكري الهادر متلاطم الأمواج، لم يعد هناك مِن داعٍ لتصعيب الاختبار على نفسـي، بين حبّي من جهة، وملاحظات والدتها التي تصل إلى حدّ الاعتراض على قصّة حبّنا مِن جهة أخرى.

أخيرًا حدثت المعجزة دون سابق إنذار، اكتَشَفَت شقيقتي بالمصادفة أنّ المحافظة فتحت باب الحجز لمشروع إسكان الشباب، واستطاعَت أن تحجز إحدى الشقق باسمي في الساعات الأولى من بدء التقديم، بعد أن دفعت خمسمائة جنيهًا رسمًا لذلك.

وما أن تلقفت الخبر من شقيقتي حتى سارعت في إنهاء المكالمة معها، على أن أتصل بها لاحقًا، وشرعت على الفور في الاتصال ب «سلمى»؛ لمشاركتها فرحتي، نسيت هواجسي، واستبعدت ظنوني، بعد أن رجمت شيطاني لكنني لم أتلقَّ منها ردًّا، ولم أجْنِ مِن مُحاولاتي سوى الفشل، الغريب في الأمر أنني ما أن أطلب الرقم حتى أسمع صليل الهاتف يتردد على الجانب الآخر إلى أن يتوقف، ومع تكرار المحاولة يكون الهاتف مشغولًا، قبل أن يصبح خارج نطاق الخِدمة، أتراها ترفع سمّاعة

الهاتف عمدًا حتى لا تجيب؟ أم إنها تنزع قابس الهاتف بأكمله؟ مرّ أسبوع تلو الآخر دون أن أتلقّى منها ردًا على اتصالاتي.

ورغم تيقُّني مِن أنها تخلَّت عنّي إلا أنني لم أملّ مِن تكرار محاولاتي للاتصال بها، لكنني لم أجْنِ من التكرار سوى المزيد مِن الفشل، ومع أنني بتُّ متأكدًا مِن أنها فشلَتْ في اختباري لها، إلا أنني رفضتُ أن أسلم بالحقيقة، والتي باتت واضحة جليّة لي، وبدأتُ ألتمسُ لها الأعذار، متحايلًا على نفسي لإقناعها ببعض الحجَج الوهميّة الواهية.

فكَّرتُ في الانقطاع عن العمل والعودة؛ للوقوف على حقيقة الأمر بنفسي، إلا أنني لم أستطع ترْك تلاميذي؛ خاصّة مع حالة العجز الصارخ الذي تعانيه المدرسة في المدرسين، كما أننا في الأيام الأخيرة من الفصل الدراسي؛ ولم أجد من خيار أمامي سوى طلب المعونة من شقيقتي.

اتصلتُ بها وسألتها عن «سلمى»، اندهشَتْ مِن سؤالي، «كنت سأطرح عليك السؤال ذاته!» قالت، وأخبَرَتني أنها لم تتلقَّ منها أيّ اتصال منذ مدة، كما إنها لا تجيب على اتصالاتها أيضًا، وسألتني إن كان قد حدث خلاف بيننا؛ ترتب عليه مقاطعتي ومقاطعتها، وهو ما أجبته نافيًا، وطلبتُ منها أنْ تحاول الاتصال بها مجدَّدًا، كلّ ما أردتُه هو الاطمئنان عليها، حتى وإن اضطرّت للذهاب إلى منزلها فلتفعل.

ولم يكن بيدي حيلة سوى الانتظار، كنتُ أذهب إلى مركز الاتصالات يوميًّا لمهاتفة شقيقتي، إلى أن مللتُ سماع إجابتها المعتادة: «لا أخبار جديدة»، لكنّها هذه المرّة تلجلَجَت في الكلام، ولم تجب بعباراتها المعتادة؛ أدركْتُ أنها تخفي عني شيئًا ما، ومع ذلك تريد إخباري به، لكنّها مترددِّة؛ شيء أدركتُه منذ مدّة، وقبل أن تنطق به، لكنني كنتُ أرفض التسليم بالأمر... تخلَّت عنّي.

- «خطبة سلمى كانت بالأمس»، قالت.

تحدَّثَت بعدها طويلًا، لا أذكر أنني سمعتُ مِن كلامها شيئًا، ما أذكره أنها حاوَلَت مواساتي، وإن كنت لا أتذكر من كلامها سوى كلمتي «القسمة والنصيب»، اللتين رددتهما كثيرًا، لكنّ كلماتها كانت أبعد من أنْ تلامس جراحي، لا أنْ تُداويها.

أخيرًا

مرَّت الأيام مملّة بطيئة، غرقتُ فيها إلى قاع أحزاني دون أن أعرف لنفسي خلاصًا منها، لكنّني بدأتُ أطفو تدريجيًّا إلى السطح، لم يكن من الصعب على التخلُّص مِن تعلقي بها، هي مَن اختارت الرحيل في أوّل اختبار جدّي لعلاقتنا.

كما أن الحياة لا تتوقف عند أحد، نحن من يتوقف عن العيش ومواصلة التقدم، وأنا اخترت المضي قدمًا في حياتي؛ هي من دفعتني مُكرَهًا لوأد حبها، ومع أنني لم أستطع التخلّص منه كليًّا، إلّا أنني بتُّ واثقًا مِن أنّ الثمالة الباقية منه في قلبي ستنتهي قريبًا، وسرعان ما سيطوي حكايتها النسيان.

انتهت أشهر الإجازة الثلاثة، كانت واحدة مِن أسوأ الفترات التي مرّت عليّ في حياتي -إن لم تكن أسوأها على الإطلاق- كنتُ أُحصي الأيام منتظرًا انقضائها، والعودة إلى مدرستي وتلاميذي، وبينما كنتُ أحزم أغراضي، ومعها ألملم أحزاني، لأدفنها في عمق الصحراء، مستعينًا بوحدتي عليها، بعيدًا عن نظرات المحيطين بي، والتي باتت تحاصرني، فوجئتُ بها تتّصل قبيل ساعات مِن سفري. اندهشتُ حينما رأيتُ رقم هاتفها يتراقص أمامي على شاشة الهاتف، وسألتُ نفسي ما الذي يدعوها للاتصال بي بعد كل هذه المدّة؟ أكثر من ثلاثة أشهر مرّت عليّ كثلاث سنوات، لماذا؟ ولماذا الآن؟ هل تأبى أن تخرج مِن حياتي بهدوء دون أن تلقي بي مجدّدًا إلى أتون فكري الملتهب؟ تملكني فضولي في الإجابة عليها؛ ومعرفة سبب اتصالها، لا بد وأنها تمتلك سببًا وجيها، تستمد منه جرأتها، أو أنها على قدر كبير من الوقاحة؛ كيف يمكن لجلاد أن يتجاسر على مواجهة الضحية! سأجيب عليها، ومن يدري، ربما تمنحني سببًا جديدًا ألعنها لأجله، وأصبّ به جمّ غضبي عليها، إنها حتى لم تودِّعني، وكأنني لا شيء، انسحبت وتركتني محاط بفوضي الهجر! من منحها الحق أن تدخل إلى حياتي وتخرج منها متى تشاء؟! تجاهلتني وكأنني لم أكن أمثل أي قيمة في حياتها، في لحظة نسَفَت حياةً وهشمت أحلامًا خطّطنا لها معًا، رأيتها بعينَيْ خيالي واقِعًا ملموسًا.

لكنّني خشيتُ أنّ يكون فضولي مجرد حجّة، استجابت لاستجداء ينبعث داخلي من مكان ما، لكن هي مَن حطم ذلك التمثال الذي صقلتُهُ لها مِن مشاعري، وحفظَتُهُ بين ضلوعي، واعتدت أن أتضرع أمامه، تاليًا تراتيل الحب، ومقدمًا قرابيني، ولكنْ ماذا سيحدث إن هي سكبت دموعها غزيرة؟ هل ستتمكن مقاومتي ساعتها من الصمود أمامها طويلًا؟! ومع تكرار محاولاتها في الاتصال بدأت مقاومتي في التراجع،

إلى أنْ انهارت وسقَطَت كليًّا؛ ووجدتُ نفسي أرفع سمّاعة الهاتف، لكن لم يكن لديّ رغبة في الكلام، كان فضولي يدفعني لسماع ما تودّ قوله:

- «أحمد أهذا أنت؟» تساءلت.

لكنني لم أجِبْ عليها وآثرتُ الصّمت.

- «بما أنك لم تجِب بالنّفي أو بالإيجاب لا بدّ وأنه أنت، لماذا توقّفتَ عن الاتصال بي؟

هل نسيت ما كان يجمعنا؟!» قالت.

«ماذا؟ أنا هو مَن توقّف عن الاتصال بها، لم أعُد أفهم شيئًا، عشرات المرّات التي حاولتُ فيها الاتصال بها، لكنها لم تجِب، وكيف كنتُ سأتصل بها بعد ذلك؛ وبعد أن تمّت خطبتها؟» قلت في نفسي، زاد سؤالها مِن مقدار سخطي ونقمتي عليها، لكنها رغم ذلك لم تفلح في دفعي للتحدث والإجابة عليها.

-»إنْ كنتَ قد تخلَّيْتَ عني، لماذا لا تجيب عليّ وتخبرني بذلك؟» أكملت.

يا لبراعتها، أتراها تصدِّق ما تقول؟ ترتكب الجرم وترتدي ثوب البراءة، والأدهى أنها كما يقول المثل: «رَمَتْنِي بِدَائِهَا وانْسَلَّتْ»، من أين جاءت بهذا القدر من الوقاحة! ومتى امتلكته؟! أم أنها كانت تحوزه من البداية، لكنني لم أكن أراه؛ كنت منتشي بخمر الحب، وكما يقول المثل: «مرآة الحب عمياء». لكنها دون أن تدري قطعَت على نفسها آخر بارقة أمل، وأغلقت آخر نافذة كان يمكن أن تتسلل إلي من خلالها؛ وتجعلني أستجيب لذلك التضرع الذي يطلقه قلبي؛ وأمنحها صكًّا بالغفران لخطيئتها نحوي، لو أنّها كذبت عليّ، وادّعت أنها قبِلَتْ بالآخر مُرغمة! وفي لحظة ضعف لم يكن أمامها من خيار سوى الانسحاب من حياتي، لكنها لم تكلف نفسها حتى حياكة كذبة محكمة التفاصيل تخدعني بها، وكأنها تقول لي: «أنت غبي ومغفل، بلا كرامة؛ تقبل عودتي متى شئت».

أدركتُ أنها لا تستحقّ حبي لها، ولا تستحقّ حتى عناء الإجابة عليها، قرّرتُ إنهاء المكالمة، دون أن أعلّق ولو بكلمة واحدة، وضعتُ سماعة الهاتف، ولم أجب على محاولاتها المستمرّة للاتصال بي بعد ذلك.

لكنها لم تستسلم؛ وقررت أن تجرب طريقة أخرى تؤثر على بها، اتصلت بشقيقتي،

وراحت تشكوني إليها، معتقدة أنها لا تعلم شيئًا، وبكلّ براءة تتعجّب من موقفي، وأنني توقفت عن الاتصال بها، وفي الوقت ذاته لا أجيب على اتصالاتها إلا أنها سمعَت من شقيقتي ما تحاشيتُ قوله، وهكذا أسدِل السِّتار على قصّة حبي، التي لم تَكن غالبًا سوى مِن جانبٍ واحد.

ولكن لماذا لم أسامحها؟! الإجابة بسيطة، «الثقة» هي أساس أي علاقة، وإذا ما اهتزت أو فقدت، من الصعب، بل من المستحيل استعادتها، لكنني مع ذلك لم أبخل عليها بالغفران؛ وقررت أن أنساها.

***

استفقتُ فجأة مِن دوّامة الماضي، التي سحبتني معها بعيدًا إلى تلك الأحداث التي جَرَت قبل أكثر مِن عقدين مِن الزمان، على يدٍ تُمسك بذراعي قبل أن تحتضنه، إنها «سمسمة»، ابنتي الكبرى، والتي حمَلَت اسم والدتها، المرأة التي اكتشفتُ معها درب الحبّ، وجعلتني أؤمن بوجوده مجدَّدًا، بعد أن شككتُ للحظة في وجوده.

لكنني كنتُ على موعد مع السعادة حينما التقيتها؛ «سهيلة» زوجتي، تشارَكنا كلّ شيء في الحياة، حلوة ومرّة، كنتُ وما زلتُ أستمدّ منها القوّة التي أنا عليها.

تزوّجنا في منزل والدتي، وعشنا فيه سنوات زواجنا الأولى، وفي هذا البيت أنجبنا أطفالنا الثلاثة، لم تكن حياتنا ورديّة؛ واجهتنا الكثير مِن المُشكلات والتي تغلّبنا عليها معًا، كانت معظمها مشكلات ماديّة، لكن لم يعد لها وجود؛ خاصّة بعد أن تركتُ مهنة التدريس، وامتلكتُ عملي الخاصّ، وبفضل دعمها وتشجيعها لي أصبحتُ ممّن يُطلق عليهم «رجل أعمال».

أمّا الأمر الذي ما زال يثير حيرتي، ويشغل تفكيري إلى الآن مع مرور كلّ هذه السنوات، هو مصير الشقّة التي حجَزَتْها شقيقتي باسمي، ما أزال إلى الآن أجهل مصيرها، ومصير الجنيهات الخمسمائة التي دفَعَتْها، ما أذكره أنّ الموظف المختصّ تأفّف مِن كثرة تردُّدي على مكتبه، ومِن إلحاحي في السؤال، وطلب مني ألّا أحضر إليه مجدَّدًا، وأن أنتظر اتصالًا، لكنه لم يأتِ مطلقًا.

- «اتركي ذراع والدك؛ أنتِ لم تعودي طفلة بعد الآن، عرسك بعد أيام قلائل، وما تزالين تتصرفين كالأطفال، وساعديني في حمْل هذه الأغراض، وضعيها في صندوق السيارة».

لكنني أجبتها بدلًا منها: «دعيها، سأساعدكِ أنا في حملها».

- «أنتَ دائمًا تدلِّلها».

- «ستظلّ طفلتي الصغيرة المُدلَّلة، وأوّل فرحتي، مهما تقدّم بها العمر، أم تراكِ تغارين منها؟»

ابتسمَتْ قبل أن تجيب: «أنتَ هكذا دائمًا، تحوِّل الجدّ إلى مزاح».

- «أيام وتغادرنا إلى منزل زوجها، وساعتها ستشتاقين إلى هذا الدّلال».

- «لا تذكِّرني بموعد رحيلها».

وكأنني ذكّرتها بأمرٍ تُحاول نسيانه، أغرورقَت عيناها بالدموع؛ فاحتضنتُها بذراعي في حين احتضنْتُ ابنَتي بالذراع الأخرى، وقلت:

-«لا تحزني، ودَعي البكاء لوقته، وإلى أين ستذهب؟ إلى منزل زوجها، كما إنه لا يبعد عنّا كثيرًا».

سرنا ثلاثتنا بعد أنْ وضَعْنا الأغراض التي كانت معنا في صندوق السيارة؛ لنكمل رحلة البحث والشراء التي بدأناها قبل أكثر مِن ساعتين، لشراء ما يلزم صغيرتي مِن مستلزمات، والتي أصبَحَت عروسًا، وستتزوج بعد أيام. ما أسرع مرور الأيام، بالأمس القريب كانت مجرّد طفلة تحبو، وها هي تستعدّ لتغادر إلى منزل زوجها، لكنّها سُنّة الحياة.

المحتويات

أسمى مِنَ الحُبّ ٣

هو.....٩

هي.....٢٤

هو وهي.....٣٩

هي الأخرى.....٤٤

فاصِل ونواصِل ٤٨

نهايةٌ وبدايةٌ ٦٣

أولًا ٦٣

ثُمَّ ٦٦

التّالي ٧١

بَعْدَ ذلِك ٧٨

أخيرًا ٨٦

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail.com

Facebook .Com/Fasla .Pub